شخصية السجين في الرواية التدمرية

براءة باطوس، د. عبد الكريم ضاهر

قسم اللغة العربية_ كلية الآداب والعلوم الإنسانية_ جامعة إدلب

ملخص البحث:

لم يكن أدب السجون خطاً حداثياً جديداً في ميدان الأدب فقد ظهر منذ القدم من خلال القصائد التي قيلت في الأسر، وعرفت باسم "السجنيات"، ليتطور وينضج جانباً متكاملاً في الأدب الحديث يشمل أجناساً متعددة من رواية، وقصة، وشعر، ومسرح، ومقالات، وخواطر، وغيرها شكلت مجتمعة جزءاً مهماً مغرياً لدراسات تنظيرية مسقطة على النتاجات الأدبية في هذا المجال.

وتشغل شخصية السجين حيزاً واسعاً في الروايات السجنية، إذ إنها محور رئيس لا يمكن للطابع الروائي أن يندرج تحت مسمى أدب السجون إن لم يشتمل عليه.

وقد اختصّ هذا البحث في الحديث عن شخصية السجين في الرواية السجنية التدمرية، وما يتفرع عنها من جوانب جديرة بالذكر تخدم البحث وتمنحه صفة الشمولية.

الكلمات المفتاحية: أدب السجون، رواية، شخصية، السجين، سجن تدمر.

The character of the prisoner in the Palmyra Novel

Abstract:

The prison literature was not a modern line in the literature field. It emerged years ago during the poems which are said in the capture and they are called "prison poems" and then it has become mature and complete in the modern literature it included novel، story، poetry and many others. It formed together an important tempting element as part of studies projected theoretical literature.

The character of the prisoner occupies a large place in the prison novels، because they are a main pivot. The novel character con not be categorized under the name of the "prison literature" unless it includes it.

The survey focused on the study of the prisoner character in the Palmyra Prison novel and its branches which must mention because it survey and grants it the character of inclusiveness

Key words: The prison literature, Palmyra prison, Novel, Character, prisoner.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في تسليطه الضوء على المراحل التي تمرّ بها شخصية السجين بشكلٍ موسَّع حتى يصل إلى مرحلة الإنسان المروَّض، والمنقلب قيمياً، والمفرَّغ من الكيان والمرجعية، فتتبدّل أحواله بطريقة نسبية الأثر تختلف من إنسان لآخر، بالإضافة إلى الحديث عن أنماط السجناء في مجتمع السجن كما عرضتها روايات سجن تدمر.

شخصية السجين:

تشكل شخصية السجين في الرواية التدمرية محوراً يدور حول ذاته في تفاعل حلزوني مع الآخر يحدده نطاق السجن، وتركز الرواية التدمرية على عرض قصة سجين معيّن في رحلته وراء القضبان، يتفاعل اجتماعياً مع سجناء آخرين في خط تواصلي أفقي يعامده تفاعل عمودي مع السلطة أو السجان، وتعبّر شخصية السجين بشكل عام عن نفسها بما تفصح به صراحة أو انفعالاً أو سلوكاً، ويقوم الروائي أحياناً باستنطاق الحدث وتفاصيله كي يوحي بشيء معين لا تستطيع الشخصية البوح به بشكل فج مراعاة لطبيعتها المقيدة وعدم قدرتها على التصرف كما تريد بحكم موضعها على الخط الصراعي، ويكون التصوير الروائي لسجين اختاره الأديب واقعاً، أو رسمه خيالاً، فركَّز عليه بغية تحقيق الأثر الأجدى في بناء الفضاء الروائي الهادف.

تعاني شخصية السجين في الرواية التدمرية من ضبابية الرؤية والضياع الذاتي الوجودي، وما هذا إلا انعكاس لوحشية الواقع المفروض وإبهامه الناتج عن انعدام القدرة لأي توقع قادم أو رسم مستقبلي، وهذا الانعدام سببه شلّ القدرات المؤدي إلى الاضطراب في الوعي الفكري والتشويش على المسلمات والعقائد التي يتبناها الإنسان، ففي ظل الخوف والممارسات القمعية المحكومة بأهواء ذاتية وانحرافات نفسية وعبثية مطلقة يشل تفكير الإنسان أو بالأصح تبدأ أفكاره بالنكوص إلى مراحل الغريزة الأولية لأن الفكر الإنساني يتناسب طرداً مع الحاجات التي تتوافر لديه، فلا نراه مثلاً يفكر في طعام يشتهيه في ظل توفر كميات كبيرة ومتنوعة منه، وقد نراه يفكر في طعام يشتهيه عندما يحرم منه، وما إن يحصل عليه حتى ينتقل تفكيره إلى منحى آخر. وفي واقع السجن التدمري يحرم السجين،

الذي ناضل من أجل هدف معين تكوّن لديه نتيجة وعي كافٍ، من أدنى متطلبات الحياة حتى يصل إلى مرحلة النكوص بأفكاره إلى مستوى الغريزة البدائية الهادفة إلى المحافظة على الحياة، وبذلك تتعطل عمليات التفكير العليا المتكونة نتيجة وعي متبلور بشكل كافٍ لديه، وإرادة متشكلة تبعاً لحدث معين تعرض له السجين أو تفاعل اجتماعي مؤثر بدأ نتيجة له بالتعطش إلى قيمة الحرية، وراح يعمل من أجل نيلها، وهنا يبرز دور السلطة القمعية في المواجهة، ويبدأ الصراع بينهما برسم قاعدة العمل الروائي الذي تنهض الشخصية فيه بالعبء الأكبر في كشف حيثيات الأحداث وتصاعدها، ثم إنهاء الصراع بشكل يتيح للقارئ أن يضع بصمة له، ويرسم متسعاً لأفكاره بين السطور.

ولكي نكون منصفين في البحث، فإن شخصية السجين لا تشكّل المعادل الموضوعي لقيمة المثالية لذلك نجد نموذج المتطرف، والمتشدد، ونموذج الساذج المسيّر، ونموذج السجين البوق، والسجين صاحب الخلفية السيئة، بالمقابل هناك السجين المظلوم الذي جيء به نتيجة اعتقال جماعي أو اعتباطي، وأيضاً نجد السجين السياسي صاحب الرأي المعارض للسلطة، وبشكل عام سيكون التركيز على شخصية السجين التي وعت ذاتها بشكل كافٍ أدى إلى نضوج الوعي بالمأساة الجماعية في ظل القبضة القمعية التي يعاني منها شعب بأكمله، والرغبة بالخلاص والانعتاق، وتنامي التوق إلى الحرية والخلاص من الاستبداد، لذلك كانت لحظة تمازج وعي الأديب الروائي مع وعي القارئ تشكّل الغاية الرئيسة في وعي الفكرة الكبرى بأن المعاني المرادة التي تحصل جراء هذا التمازج هي معانٍ يمكن تحقيقها، ويجب العمل لأجلها، وليست محض مواضيع نحددها أو أحداث غنائية نحتفظ بها في طيات الذاكرة، وعن طريق تلمس المعاني نفسها نستطيع اكتشاف طبائع الأنماط الروائية للشخصيات السجنية. ويحظى البعد النفسي بنصيب وافر من التركيز لما له من أهميّة كبيرة في تحقيق الفاعلية، إذ يبتعد عن أحاديث الأنا السارد بطريقة مباشرة، ويكشف عن مكونات الشخصية من غير فجاجة، ويعود ذلك للقيود المفروضة في المجتمع السجني التي لا يستطيع السجين تقديمها بصورة حرة تأخذ مجراها بشكل طبيعي دون ضغوط خارجية مفروضة لتأطيرها.

إن المجتمع المكون من السجناء يحيل إلى نمطية سوسيولوجية تكونت نتيجة ظروف سجنية واحدة وحرمان واحد أدّيا إلى تحول مضموني في اتجاه الطبائع نتيجة وقوعها تحت سيطرة غريزة البقاء للحفاظ على الحياة أو لغرض الصمود أو حتى باللاشعور الإنساني الفطري، وفي نظام الحياة التدمرية هناك أوامر محددة وسلوكيات جمعية لا تنبغي مخالفتها، تأخذ طابع البعد الاستثنائي الجامع بين التسيير ونزع الإنسانية من خلال إشعار السجين بأنه منزوع السلطة على جسده، وجعله عبئاً عليه، يزيد ثقله يوماً بعد يوم، فيتآكل نفسياً شيئاً فشيئاً حتى يغدو مجرد قشرة هشة من اللحم والعظم لا تمتلك أي ارتباط إرادي بصاحبها:

"وكان علينا أن ننسى كيف نستعمل عيوننا ولماذا. اقتضت الحكمة في تلك السنوات الغابرات.. أبق رأسك مرفوعاً وهامتك منحنية.. ويديك خلف ظهرك.. والشراقة؟! إياك أن تفكر بالنظر عبرها. ارتكاب خطيئتين: رفع الرأس عالياً، والتمرد على القوانين. رفع الرأس عالياً كان يكلف الرأس نفسه. ما أسهل أن تفقده في لعبة البساطير التي تدور بين (22) لاعباً!!"[(1)].

ولا بد لنا هنا من المرور على مصطلح (التعليم) وهو تمييز أي فرد يخرق القوانين التدمرية، أو يستهوي مزاج الجلاد من دون سبب، ليعاقب عند التنفس أو في الصباح التالي، ليخرج بملء إرادته!! عندما ينادى على المعلَّمين كي يخرجوا لنيل عقوباتهم.

و" لعل الهدف من نظام التعليم التدمري هو غرس المنعكسات الشرطية المناسبة، ومنع روح الاستقبال أو التشريفة من التقادم، أو ببساطة إنعاش كسر العين"[(2)]

تحت ضغط القيود التي تكبل سلوكيات الإنسان، وتسيره وفق أوامر روتينية محددة تخالف الطبيعة الإنسانية يبدأ بخسارة إنسانيته شيئاً فشيئاً وبالتأكيد تبدأ تفاصيل المعاناة من اللحظة الأولى لدخوله سجن تدمر حين يبدأ السجانون "حرب الأعصاب منذ اللحظة التي يستلمون فيها السجين السياسي، وهم في ذلك يستغلون قلقه الداخلي، وعدم صحوه من مفاجأة الاعتقال ولذلك يقدمون له وجبة الخوف الأولى"[(3)]، وقيل في وصف اليوم الأول

في سجن تدمر " أظن أن شعورنا في يومنا الأول لا يختلف عن شعور من وقع في بئر عميق في منطقة مقطوعة عن العالم. لعله شعور آدم بعد السقوط"[4].

وعلى الرغم مما يكابده السجين في المحطات ما قبل التدمرية إلا أن رهبة السجن الصحراوي تبقى (الفزاعة) الكبرى التي تهدد الجهاتُ المحقّقةُ المسجونين بها في حال عدم تجاوبهم علماً أن ما ينزل بهم من عذابات قاسية ومرعبة لا يستهان به على الإطلاق لكن تدمر تبقى الجحيم الذي لا يقبله عقل أو منطق واشتهر بعبارة (الداخل مفقود والخارج مولود)، وهذا العرف الاجتماعي لا يخفى على أي شخص يعيش على هذه البقعة الأرضية، ولهذا تطرح الروايات التدمرية فظاعة هذا السجن من خلال عرض صورة السجان الذي اتصف سابقاً باللاإنسانية، وعامَلَ السجين فيما مضى بوحشية، ثم انقلب بتبدل الأمكنة ليتعاطف معه في طريق ترحيله إلى تدمر لأنه يعلم ضمنياً أن ما ينتظره كاف ليطمس جوانب تكوينه بالسواد، وحياته القادمة بالقتامة الضبابية المشبَعة بالمواجع:

"فتح لنا رجال الأمن أبواب السيارات، هم أنفسهم الذين كانوا يعاملوننا بفظاظة وقسوة، أنزلونا من السيارات برفق مشوب بالشفقة، حتى أن أحدهم قال (الله يفرج عنكم)!!"[5]

وكأن الانقلاب الترابطي بين السجان والسجين مقترن بالمكان الرابط، طالما وجد التفاعل بينهما وراء القضبان وجد الظلم والاستعباد، واللحظة الفارقة بينهما تفصل بين عالمين مختلفين تماماً بالنسبة للسجان، لأنه أيضاً محكوم بنزع إنسانيته وانتزاع إنسانية الآخر في السجن الذي يعمل فيه، ليرضي السلطة أو ليرضي نزوات نفسه. وتطرح الروايات أيضاً المنهجية المطبقة في سجن تدمر على تنشيط التفكير الغرائزي وتعزيز سلوكيات السجين المتأتية فطرياً من غير وعي أو تفكير، وتثبيط السلوكيات الإنسانية الناتجة عن تراكم معرفي وثقافة إدراكية مهذبة يتحكم بها صاحبها وهو المرمى الذي تصوب السلطة أهدافها باتجاهه عامدة بذلك إلى قلب المعايير وتحويل الإنسان من مستوى الوعي إلى قالب مفرغ من الثقافة المرجعية والتربية الإنسانية وتهذيب النفس وتجبره على "النكوص إلى مستوى حاجات السلامة والمعاش والجري وراء توفيرها"[6] وجعلها جل اهتمامه:

"في غمرة حفلة التعذيب حانت التفاتة من السجين إلى حبة الصمون في الساحة يقوم شرطيٌّ آخر بركلها بقدمه كأنها كرة. فذهل السجين عن وجع الكيبلات، وعن سيل الدماء، وعن مرير الصرخات، وتوقف كالمشدوه، واستأذن معذبه أن يتناول تلك الصمونة من بين أقدام الشرطي ويأكلها، فأجابه: لا. وكأنه قال له: نعم. ولم يقل له لا. كان ذهنه كله يعمل من أجل نعم؛ فلم يسمع غيرها، فانفلت من تحت السياط يركض كالمسعور باتجاه تلك الصمونة، وظن العسكري هناك أنه هاجم باتجاهه فتراجع إلى الخلف، واستعد للانقضاض عليه. وذهل ذلك الشرطي حين رأى السجين كالحيوان يمسك الصمونة بكلتا يديه، ويداه ترتعشان وتضطربان فتتحرك الصمونة من بين يديه وأصابعه، ثم يأكلها، ويلتهمها كأنه إنسان بدائي من العصور الحجرية. كان منظراً يقطع القلب أكثر انقضاض الشرطي والعسكري على جسده من الخلف يوسعانه ضرباً وشتماً ودعساً، وهو-لا يحس بهما- ماض في أكل الصمونة إلى نهايتها، حتى إذا ما فرغ انقلب على ظهره كأنه ملك الدنيا ولم يعبأ بكل أنواع العذاب المصبوبة على جسده من الخلف!!"(7)

في المقطع السابق يتجلى الصراع الداخلي بين الإنسان وذاته في أوج صوره، بين إنسانيته وتلبية متطلبات جسده الملحّة، بين تحمُّل الضرب وأوجاعه، والظفر في معركة الحصول على فتات الطعام. إنها سياسة التجويع، وهي إحدى السياسات المتبعة في سجن تدمر والمفروضة على السجناء ضمن الخطة الهادفة لانتزاع إنسانيتهم وإجبارهم على التحول إلى بشر بدائيين لا أسس مرجعية لديهم، همهم الوحيد تلبية الغرائز الجسدية التي تحفظ الحياة، وخواء المعدة هنا يؤدي إلى الخواء الرضوخي لمتطلباتها وإيثار امتلائها على سلامة الجسد من العذاب الذي اعتاد عليه، والاختيار التفاضلي بين أمرين (كلاهما يؤثر على سلامة الجسد) وقع تحت أثر التكثيف لاستخراج غريزية الحاجة لأن العذاب أصبح شيئاً روتينياً بالنسبة للسجين التدمري ومحصوراً بين خيارات محددة هي الموت تحت التعذيب أو العطب الجسدي أو السلامة لكن الجوع الشديد لم يؤلف ونتيجته حتماً واحدة تجبر المرء على تحاشيها حتى وإن اضطر إلى الاندفاع المجرد من المرجعية الإنسانية أو الكيان ذي الثقافة المرجعية. إن السجين قد آثر في المقطع السابق فقدان كيانه ومكتسباته المعرفية بعد أن نكص بأفكاره إلى المرحلة الغريزية كالطفل تماماً في السنة

الأولى أو الثانية من عمره عندما يريد الحصول على الطعام، فينطلق إلى القطعة الموجودة أمامه بلا تفكير أو حساب للنتائج أو تأطير للتوقعات لأنه لم يخضع بعد لعمليتي التثقيف والتهذيب السلوكيين بما يكفي لأنَّ مدركاته قاصرة على استيعاب أمور معينة وقدراته في ضبط الذات قاصرة جداً، ولذلك نجده لا يتصرف إلّا رضوخاً لمتطلبات حاجاته الإنسانية بالطريقة الطفولية ، كذلك يتحول السجين إلى إنسان منزوع المرجعية مسلوب الكيان يسيطر السجان على سلوكياته بما فرضه وأجبره عليه:

"وقف اثنان من البلدية أمام المهجع، ووضعا لنا حلة من الشاي، وقطعاً من الخبز الحاف، وعدداً قليلاً من قطع جبن مغلفة ببقرة ضاحكة. تناولها السجناء ووزعوها على الجميع فأصاب كل سجين قطعة خبز بحجم الكف، وقطعة جبنة بحجم حبة الفول، وكأساً من الشاي تعلوه طبقة من الزفر. القدامى من السجناء وجدوا في ذلك وجبة دسمة بعد أن اعتادوا عليها، وأجبروا أنفسهم عليها للبقاء على خيط الحياة الرفيع، وإلا فإن الموت المتخفي وراء باب كل مهجع سيتسلل سريعاً إلى الأضلع"(8)

وهذا من النقاط المطروحة في الرواية التدمرية ويمكن تسميته بخفض سقف المطالب والطموحات، ويحدث هذا التحول عندما تتحكم السلطة باحتياجات الإنسان "فتعطي وتمنع وتوفر أو تقتر، وتغدق أو تمهل وليس أشد تأثيراً على الإنسان من فقدان سيطرته على حاجاته الأساسية"(9) لأنه يؤدي به إلى بلوغ مرحلة الإنهاك النفسي والجسدي، ودس الخلل في نفسيته وبالتالي الموت الوجودي المتفاقم في أغلب الأحيان إلى نتائج خطيرة كالجنون أو الانتحار أو الأمراض النفسية المختلفة.

وتهدف سياسة التجويع أيضاً إلى حث غريزة البقاء على التجلي بأبشع صورها وبالتالي استعراض نتائجها المتجسدة بالمشاجرات بين السجناء والحقد على بعضهم وحض الأنانية الإنسانية على الظهور بأبشع صورها:

"أنا جائع، أكثر من خمسة شهور مرت على بداية الجوع، غريزة البقاء، بدأت تحدث بعض المشاجرات بين السجناء بسبب توزيع الطعام، عهدوا بهذا الأمر إلى أكثر الأشخاص احتراماً ومهابة، تطرح هنا تساؤلات كثيرة حول سبب نقص الطعام:

-هم يريدوننا أن نموت جوعاً!.

-قد يكون لدى السلطة النية بإخلاء سبيلنا، لكنها لا تريدنا أن نكون أقوياء في الخارج، يجب أن نكون مرضى كي لا نستطيع القيام بشيء خارجاً.

الكثير من التخمينات، الكثير من التحليلات، ولكن الشرطة كانت تراقب.

فتح اليوم عناصر الشرطة الباب وطلبوا إدخال الطعام، ركض الفدائيون وقاموا بإدخال كميات الطعام الهزيلة، ولأول مرة لم يكن هناك ضرب وكرابيج، وبرز بعدها المساعد ووقف على باب المهجع، بيده بطيخة حمراء تزن حوالي ثلاثة كيلو غرام، صاح برئيس المهجع:

تعال لهون.

ذهب رئيس المهجع إليه مسرعاً.

-خود هالبطيخة، حصة المهجع!.

سكت قليلاً وبعد أن تناول رئيس المهجع البطيخة، قال المساعد:

-بدي شوف... كيف بدك توزع هالبطيخة على المساجين!."(10)

وتناقش رواية القوقعة هذه النقطة، وتطرح نتائجها بشكل تصاعدي يحول الصراع من صراع عمودي إلى أفقي:

"في البداية تعامل الجميع مع المسألة بأنفة وعزة نفس، شيئاً فشيئاً مع استمرار الوضع بدأت التصرفات الغريزية تطل برأسها، فالسجن أساساً هو عالم الأشياء الصغيرة، عالم الصغائر، اثنان من أساتذة الجامعة، شخصان محترمان جداً، كبيران في السن... يتشاجران، يتشاتمان، ينتهي الأمر بالمقاطعة، والمسألة برمتها تكون قد بدأت على الشكل التالي:

- يا أخي كم مرة قلت لك لا تلبس شحاطتي؟!

- إيه... شو فيها إذا لبسناها؟.. رح ينقص من قيمتها يعني؟!

- بينقص ما بينقص... لا تلبسها وبس... صار مية مرة حكينا.. وإلا انت مابتفهم حكي؟!

- أنا ما بفهم!!.. شو شايفني حمار متل حضرتك؟!

- أنا حمار؟! إي انت وأبوك وكل عيلتك حمير يا أكبر حمار!!

- وقد يتطور الأمر بين الأستاذين إلى الضرب إذا لم يتدخل أحد بينهما.

لا يمر يوم دون مشاجرة أو أكثر موضوعها الوحيد الطعام.

- ليش أعطيتني قطعة خبز أصغر من غيري؟

- ليش تعطي فلان ملعقة لبنة كاملة وأنا يا دوب نص ملعقة؟

- ما بيكفي انه حصتي ثلاثة حبات زيتون وفوقها تكون صغيرة، حبات غيري سمينة"[11].

يتضح التحول في الخط الصراعي لينتقل من دائرة العجز بالنسبة للسجين إلى دائرة الفاعلية، لأن الضغط المتراكم نتيجة قهر الظروف والكبت يوصلانه إلى درجة الانفجار النفسي، فينفث قليلاً عن نفسه المضطربة عندما يجد الفرصة ليعترض أو يشاجر أو يتمتع بحقه في الكلام وهذه الأمور لا تتأتى إلا إذا كان الصراع أفقياً بين السجين والآخر وما دون ذلك سيكون بالضرورة كارثي النتيجة.

تحاربُ أيضاً السلطةُ السجينَ بحقوقه الإنسانية المشروعة كالطعام والدفء والأمان وغيرها؛ فتفرض عليه البرد القارص مثلاً، وتذيقه مرارته، ثم تمنحه الغطاء، فيجد نفسه انقلب من جحيمية البرد إلى نعيم الدفء، ويصبح الغطاء تكرماً وعطاء من السلطة لا سيما أنّ السجين ذاق مرارات فقده وأصبح الحصول عليه جلّ ما يتمنى،

وتذيقه مرارة الجوع، ثم تمن عليه ببعض اللقيمات والفتات، فيتحول سقف طموحاته من ضفة إلى أخرى، وينخفض تماشياً مع هرم الاحتياجات الإنسانية:

"عاد عشرة من العساكر حملوا البطانيات على دفعتين. تكومت على الباب من الداخل فرحنا كأننا استلمنا هدايا العيد"(12)

تكمن المفارقة في جعل اللحظات الجحيمية نعيماً وسعادة عن طريق استبدال قناعات الإنسان، فالسجن التدمري بحد ذاته جحيم، والبرد فيه يشكل مضاعفة لجحيميته، فهل من الممكن أن تحول بطانية مثلاً هذا الجحيم إلى نعيم؟!، أو هل يمكن أن تكون لحظة انتهاء العقوبة والدخول إلى المهجع الذي يعادل أساساً مكمن العذاب لحظة فرح مثلاً؟!!. هكذا تعرض الرواية النهج المتبع لفرض التغيير في قناعات السجناء، وعلى النسق السابق يتم خفض سقف تطلعاتهم كي يبقوا دائماً على يقين بأنهم في أسوأ أحوالهم في نعيم تمنّ عليهم السلطة به، وقد يعني الشيء العادي بالنسبة للناس العاديين شيئاً كبيراً بالنسبة للشخص إذا كان سجيناً تدمريّاً في ظل ما يعيشه من حرمان وقهر، ولعلّ هدف السلطة من ذلك أن يضع السجين نفسه ذاتياً محل المقارنة بين ما حلّ به بعد أن أذنب – من منظور السلطة-، وما كان يتمتّع به، وهذه -أيضاً- من النقاط التي ركّزت عليها الرواية التدمرية:

"ما أسكرني ... كان الخيار... الخيار بلونه الأخضر، انسابت روائحه وعطوره إلى أنفي، ثلاثة جاطات من الخيار أفرغوها وسط المهجع غير بعيد عني مشكلة تلاً صغيراً أخضر، إلى جانبه تلاً صغيراً أحمر من البندورة، رائحة الخيار ملأت المهجع، الجميع كان فرحاً، أبو عبد الله كان مذهولاً من أثر الزيارة، ودون أن أفكر أو أعي بما أقوم به مشيت وجلست إلى جانب تل الخيار الأخضر، انحنيت وشممت بعمق، إنها رائحة الطبيعة.. رائحة الحياة، اخضراره هو اخضرار الحياة ذاتها، أمسكت واحدة وأدنيتها من أنفي وتنشقتها بعمق، أغمضت عيوني وأعتقد أن ملامحي كلها كانت تبتسم.

كان كل هذا أشبه بزلزال، ارتج كياني كله، فتحت عيني وإذ بغابة من العيون تحدق بي... لم أعبأ، ألقيت الخيارة على كومة الخيار، ومشيت إلى فراشي، تمددت، غطيت رأسي... وبكيت بصمت".(13)

كل هذا التحول في شخصية السجين ما هو إلا وليد النهج المتبع معه مما عرضناه وسنعرضه.

و تحاول السلطة بشتى الوسائل سلب كرامة السجين عن طريق العقوبات المهينة، وفرض السلوكيات المسيئة للإنسان، وتصويب الأسهم الانتقامية إلى النقاط المحورية في العرف العام والثقافة المرجعية ما لا يرضاه الإنسان على نفسه، والهدف من ذلك الإذلال، ومسخ الكرامة، ووأد الإنسانية، فينشأ تناسب عكسي في حياة السجين التدمري بينه وبين كرامته، فكلما زاد إحساس السجين بكرامته انخفضت قدرته على تحمل القهر ومواصلة الحياة، وأحياناً ربما تكون الكرامة دافعاً للتحمل لأن الموت هو نهاية القضية .. نهاية المقاومة والصمود، وبالتالي انتصار السجان:

"أعدى أعداء السجين كرامته. تقف مثل رمح في وجهه، إما أن يحملها ويقاتل بها ومن أجلها. أو ينحني أمامها لتدوسه أقدام العابرين؟! مذبوح هو على الحالين؛ فأيهما يختار؟! وهل الخيار في سجن مثل سجن (تدمر) إرادة؟! أم أن الإرادة نفسها انذبحت على عتبة البوابة التي عبرت منها الآلاف البشرية القابعة في هذه الصحراء الشرقية المهلكة؟!"(14).

إنه استلاب الإرادة ومسخ الإنسانية، يموت الإنسان على عتبة سجن تدمر، ويموت داخله مئات المرات، وليس من العجب ما اقترحه أحد السجناء بجعل شعار هذا السجن " شعار جحيم دانتي أيها الداخلون إلى هذا المكان تخلوا عن كل أمل"(15) :

"هذا المكان الذي لا يشبهه مكان في الدنيا، جُعل للإهانة والذل، لتحطيم الأنفس، للتخلص من كل من يقول لا للذات العليا. لكل من يحلم بالحرية لكل من يسأل عن مستقبل الوطن، لكل من يرى بعينيه الحقيقة ويعلن عنها. لكل من يطالب بحق. هذا المكان هو آخر عتبة الحياة وأول شفير هاوية الموت، لكل من عصى العصا، لكل من

قبل أن يدفن كما تدفن جيف الكلاب، في مقابر جماعية لا بد أن يمر بمحافل التعذيب عقاباً على كلمة لا. وكيف؟ ولماذا؟ وحتى متى؟ ولا يخرج منه إلا طويل عمر وطويل حبل الجَلَدِ والصبر، وما خرج منه طويل عمر وطويل حبل جلد وصبر إلا بعاهة مستديمة"[16]

من يقتحم غمار سجن تدمر يجد أن الكلام السابق لا مبالغة فيه، فالسجن الصحراوي يختلف عن السجون الأخرى بالرهبة التي تغلفه نتيجة الوحشية والأساليب القمعية الباطشة المدروسة والممنهجة، وتوضح الروايات التدمرية العلاقة الصراعية بين السجين والسجان السائرة ضمن أطر إنسانية ممنهجة، وتطرحها من خلال صور شخوصية وأصوات ضدية في الرواية إذ تعمد إلى تجريد السجين من خصوصيته كإنسان، وبالتالي انتزاع كل ما يتفرد به السجين، فيميزه عن غيره، ويتواءم ذلك مع طبيعة السجن المقيدة، وفضائه الحدودي المغلق الفارض لأنظمة وأوامر روتينية، يتماثل فيها المختلف من الأنماط البشرية ما يولد الكثير من الإشكاليات الناتجة عن التعايش القسري لأناس " لم يختاروا بعضهم بعضاً، فهم من مشارب ومنابت مختلفة.. تربيات مختلفة.. سويات حضارية مختلفة".[17] وهذا النسف للخصوصية مع الدمج القسري بالآخر المختلف عن الذات الفردة بنقاط متعددة يتجاهل القيمة الفكرية لها، وينسف الوجود الذاتي ليتحول الإنسان إلى مجرد رقم مفرغ من أي قيمة إلا القيمة المضادة لإنسانيته، ويكتسب هذه الأخيرة عندما يحول إلى ألعوبة في يد إنسان آخر شاء الواقع أن يجمعهما مكان واحد وظروف مختلفة، يتلاعب فيها أحدهما بالآخر بحسب أهوائه لا وفق المنطق، ويسلبه كيانه وثقافاته المرجعية التي كونته وبنى مدركاته تبعاً لها، وطباعه المتفردة التي تميزه عمن سواه وتحوله إلى عدد مبهم ضمن قطيع بشري مروّض يأتمر بأمر السلطة في كل التفاصيل وأكثرها خصوصية، وهذه الخطوة هي الأكثر تأثيراً على نفسية السجين؛ مثلاً يسعى السجان إلى فرض التعري أمام الملأ إن أراد، ويفرض الاستحمام الجماعي وتبديل الملابس في مهجع مكتظ بالبشر، ولا يمكننا النظر إلى هذه الأفعال من المنظور الظاهري السطحي بل هي عملية تحطيم قيمية ذات طابع تدميري ممنهَج يستهدف الطابع العقائدي والتفكير القيمي للإنسان، بالإضافة إلى "التجريد من الخصوصية التي تميزه عن

المجموع وتجاهل هويته بحيث يفقد كل عناصر الاختلاف والتفرد ويتحول إلى مجرد نسخة مكررة تندمج ضمن مكونات الفضاء المغلق لعالم السجن"[18]، وهذا الاستنساخ الكربوني العشوائي في روتين السجن بكافة تفاصيله يفرض على السجين الاندماج القسري مع أشخاص قد لا يتفق معهم على أي صعيد مما ينسف أيّة قدرة أو إرادة لديه.

السياسات المتبعة في ترويض السجين التدمري كما طرحتها الرواية:

تتمحور السياسات المتَّبعة في عملية ترويض السجين التدمري التي طرحتها الروايات التدمرية حول (الحرب النفسية، والتجريد من الخصوصية، وحيونة السجين)، وجميعها تصب في سبيل عملية الترويض البشري للسجين، وجعله إنساناً مسيّراً بأمر الآخر، مفرغاً من أيّة قيمة إنسانية، محدود التفكير أو محدّد التفكير على الأصح، آلي التنفيذ " في لغة الحاضر التام أنا لا أستخدم سوى أفعال: آكل، أشرب، أتغوط، أتعذب، أتألم، أنام"[19]، تمتهن كرامته ليل نهار، يُعذَّب بشكل متواصل، وربما يموت بشكل اعتباطي مفاجئ.

وتتنوع هذه السياسات لتمتد على أكثر من محور (جسدي، نفسي، فكري، عقائدي، عاطفي).

المحور الجسدي:

تحدثنا سابقاً عن سياسة التجويع التي فرضت عليهم "إضراباً جبرياً مستمراً، نظراً إلى رداءة الطعام وقلته، وكانت الإدارة تتعمد تجويعنا في عملية اغتيال منظمة، فتزودنا بأقل ما يمكن لتمد في أعمارنا التي قصرها الإذلال"[20] وعلى المحور نفسه نجد سياسة نشر الأمراض الجلدية بشكل خاص (كالجرب والقمل)، إضافة إلى التعويل على الأمراض الصحية المميتة كالسل والكوليرا والتيفوئيد، وفيها يكون دور السلطة الامتناع عن المعالجة كما ينبغي وفي الوقت اللازم، ولعل الهدف من ذلك التخلص من عدد من المساجين دون تسبب مباشر، ولم نذكر التعذيب الجسدي في هذا السياق كونه شيئاً مستمراً متواصلاً لا ينقطع، ويُصَنَّف ضمن روتين السجن اليومي.

المحور العقائدي:

ومن السياسات المتبعة التي تمس الجانب العقائدي سياسة انطلقت من كون السجناء ينتمون أو يتهمون بانتمائهم إلى حركة دينية معينة يناصرونها ويدافعون عنها، لذلك يهدف السجان إلى فرض حوادث لا يقبلها منطق مع المساس المباشر بمصادر التأصيل لمنطلقاتهم من باب التحدي الدنيوي لصاحب القوة على الأرض، وزعزعة الإيمان وما يترتب عليه من تبعات (انهيارات: جسدية، نفسية، فكرية)، لأن التوازن الجسدي النفسي وحماية الذات من الانهيار تتطلب إيماناً قوياً لا يتخلله شك. وتشكل هذه الأحداث صدمة نفسية للشخص الذي تعرض لها، كحادثة إعدام ثلاثة أبناء لأب واحد في الوقت نفسه وأمام عينيه، بالضرورة سيتعرض هذا الشخص لصدمة نفسية وفق تسلسل مراحلها وسيمر في بدايتها بمرحلتي الإنكار والغضب وعند تمازج هاتين المرحلتين قد يتصرف الإنسان منفلتاً من ضوابط العقل لشدة الصدمة، فتبدأ الأفكار التي أراد لها السجان أن تتسلل بالظهور، فيبدأ بتوجيه الأسئلة الاستنكارية لله عز وجل تحت دافع الاستغراب والصدمة لكن سرعان ما يعود السجين إلى مرحلة الرشد عند وصول صدمته النفسية إلى مرحلة القبول، وتخطيها لباقي المراحل (الاستنكار، الغضب، المساومة، الإحباط، القبول).[21]

المحور النفسي:

إن الحروب النفسية التي تمارسها السلطة ممثَّلة بالسجان مثلاً كثيرة جداً في الروايات التدمرية، ونراها في أغلب صفحاتها ونستجليها من معظم أحداثها لأنها تترافق مع كل السياسات السابقة:

"سماع كلمة انتبه لم يكن أحياناً بالأمر اليسير، فصوت الأغاني عبر مكبر الصوت أو هدير الطائرات من مطار تدمر العسكري المحاذي للسجن كانا مناسبة ممتازة لشرطي سادي يبحث عن عدد من الضحايا.. لم ينتبهوا.. كانت الشرطة تتلذذ بإعطاء أمر انتبه مع أغنية صبر أيوب... صبرت عليك يا محبوب.. وكأن الأغنية صيغت لتلحن على وقع الكرابيج والصيحات"[22]

نعم هناك أسس ثابتة ينبغي على الجلاد التركيز عليها، وله حق التصرف في كيفية التطبيق، يبتكر، ويطور، يتفنن، ويفرغ مكامن الخلل النفسية لديه كيفما أراد، وبمطلق الصلاحيات، لأن "جسد السجين ألعوبة الجلاد، وأداة ممارسة سلطته وهيمنته"[23]، المهم أن يحقق مآرب السلطة في تطبيق الحرب الجسدية النفسية على السجين، وتقدم الروايات التفاوت والهوة القائمة بين طرفي الصراع: الأول ممثل ب (السجين) والآخر تمثله السلطة (السجان) على اختلاف صوره، ويتخذ التفاعل بينهما عدة مظاهر من التحكم في حاجات الجسد الأولية التي لا يمكن التفاوض عليها لأنها تضمن استمرارية الإنسان في الحياة، وهنا يتحول الصراع من عمودي إلى صورة أخرى هي الصراع الداخلي بين الإنسان وذاته (جسده ومتطلباته)، ويتحول بالضرورة إلى صراع أفقي مع الوسط الاجتماعي المماثل للفرد واقعياً ومعاشياً، ويتحول السجين مع هذا الصراع الثلاثي إلى مرحلة الإنهاك الجسدي تلقائياً وآلياً، فمطالب الجسد تفوق موارد الواقع بإمكانياته المتاحة لا سيما إذا كانت هذه الموارد لا تغطي المستوى الأول أو البدائي الغريزي الذي يتطلب أدنى مستويات العيش، ولا تلبي أدنى مطالب الحقوق التي تتيح للإنسان الحياة بأبسط صورها، وهنا يدخل الإنسان في مرحلة الأزمة متعددة المناحي (جسدية- نفسية- فكرية...) لأنه يتحول ببساطة إلى آخر يغاير ثقافته التي نشأ عليها مستبدلاً إياها دون إرادة منه بثقافة السجن، على اعتبار "الثقافة ليست خصائص بيولوجية وإنما تمثل صفات اكتسبها الإنسان البالغ من مجتمعه عن طريق التعلم المنظم والحركات أو الاستجابة الشرطية، ويدخل في إطار ذلك المهارات الفنية المختلفة والنظم الاجتماعية والمعتقدات وأنماط السلوك"[24]، وتركز المنهجية المطبقة على السجين على ربطه بالحيوان أو بمعنى آخر تحوينه بهدف استلاب قيم الإنسانية حتى آخر خيط فيها عن طريق العقوبات وطرق الطعام والسلوكيات المفروضة وغيرها، وبالتأكيد كانت الوسيلة لتحوينه بحسب منطلق الجلاد هو انتزاع ملكية الجسد لأن الحيوان يسير بعد ترويضه كما يريد مالكه ويأمر، فيبدأ بتشكيل السلوكيات الحيوانية لديه كفرد، ثم تطبيع المجموع بها، ومن ثم تعزيزها لتصبح سلوكاً منضبطاً مروَّضاً، وعندها يصبح الشخص سلوكياً ثم نفسياً منسوفَ الإنسانيةِ، يلهث لبلوغ أدنى درجاتها فلا يستطيع:

"حفلات التعذيب الهستيرية، يومية، لا تنقطع إلا لتتواصل، لا فرق بين حر لا يطاق، وبرد لا يحتمل. لم ينل منه التعذيب في أجهزة المخابرات، نالت منه تدمر. هناك كانوا يعذبونه لكي يعترف، أما هنا فالتعذيب ليس لكتمانه معلومات يعتقدون أنه يمنعها عنهم، بل لتحويله إلى إنسان آخر، إنسان ليس بإنسان، ولقد تحول إلى ما يشبهه، إلى إنسان لم يعرفه من قبل، بلا كرامة، ولا إحساس، رجل مسطول، هذا أفضل ما حصل عليه"(25)

المحور العاطفي:

إن شخصية السجين تتعرض لأحداث عديدة وصراعات مختلفة تجعل منها كتلة تناقضات لامتوازنة ذات جوانب متفاوتة في نموها، فيتقزم عاطفياً، ويتطور ثقافياً، ويضطرب نفسياً، تتخبط أفكاره، وتعجز مقدرته الجسدية. يتقزم عاطفياً نظراً لغياب المرأة التي هي مكمن العاطفة، على اختلاف صورها (الأم، الأخت، الزوجة، الحبيبة)، وما يخلفه هذا الغياب من فجوة لا يمكن رأبها: "لحظتها لو سألني أحدهم أن ألخص السجن بكلمة لقلت إن السجن هو المرأة! غيابها الحارق"(26)

وتختلف الصورة التي تحصر من خلالها المرأة في الرواية التدمرية تبعاً لرؤية الأديب التي تصبح " مسؤولة عن اختيار التكنيك الفني الذي يتناول به هذا الموضوع"(27).

ويصر السجان بالمقابل على إشعال ذكرى المرأة من خلال التركيز على تقزيم رجولة السجين عن طريق الإهانات المدروسة والمتعمدة، والموجَّهة إلى موضوعات مدرَكة الأثر في العرف الاجتماعي، والثقافات المرجعية:

"كنت أتساءل: هل هي تسلية فقط، أم أنها نهج؟!... الدافع للتركيز على هذا الموضوع هل هو عقد الجنس، والكبت الشرقية لدى الرقباء يفرغونها من خلال السلطة التي يملكونها على السجناء؟!.. أم هو نهج مدروس الغاية منه تحطيم الإنسان، وإذلاله من خلال المرأة باعتبارها أعلى قيم الشرف لدى المسلمين سواء كانت زوجة، أو أختاً، أو أماً، أو أية قريبة أخرى؟!.. وشرف المرأة لدى الشرقيين بالعام هو ألا تمارس الجنس خارج نطاق الزوجية، وأي سلوك في هذا الاتجاه قد يدمّر العائلة بالكامل، ويلحق بها العار"(28)

ولو أردنا الإجابة عن هذا التساؤل، كان النهج المدروس هو الإجابة الأنسب لأنه المرتع الأنسب لتفريغ الجانب المعقد، والمريض للسجان، وبذلك يكون لدينا نهج تعذيبي مريض، ومعقد لا حدود لوحشيته، ولا رادع لها.

الانقلاب القيمي للسجين:

إن التحول القيمي الناتج عن تدجين الإنسان وتوسيع دائرة القطيع البشري المروَّض والمسيطر عليه يحيل بالضرورة إلى النهج المتبع مع السجين التدمري من لحظة الاستقبال وحتى الإفراج أو الموت أو إحدى النهايات المأسوية في أحسن حالاتها؛ تبدأ العذابات منذ لحظة وصول السجين عتبة تدمر في ما يسمى حفلة الاستقبال أو (التشريفة) في عرف السجن الصحراوي، وفيها تبدأ لحظة التشظي الإنساني، بداية العبثية، انتزاع الكرامة، وأد الرجولة، تأنيث الجسد نفسياً أو واقعياً، ضياع الذات، باختصار تدمر في العرف الاجتماعي والأمني تعني الاعتباطية والوحشية التي لا سقف يؤطرها ويحدد أعلى درجاتها. إنّ جميع التراكيب السابقة كانت مصدراً للروائيين ليرسموا عالماً منفتحاً بما فيه من مصادر اتساع دلالي وأبعاد استثنائية وتراكمات انزياحية ومفارقات جدلية مزدوجة الإشارات بظاهرها وباطنها الذي يتطلّب تفاعلاً وجدانياً وفكرياً من القارئ ليستلهم ما يجب أن يصل إليه كي يدرك الجانب المضموني للرواية. والمقصود بالتشريفة حفل استقبال السجناء الجدد، وتلعب في الرواية والواقع دور الممهد للسجين على الوضع الجحيمي الذي سيعاني منه في خضم أمواج عارمة من المعاناة والأهوال التي ستجرفه، واللافت في موضوع التشريفة هو الدمج البشري الكبير الذي لا يراعي أي اعتبار لمشلول أو كبير في السن أو مريض أو صاحب إعاقة أو ذي تحصيل علمي سابق، أو زميل سلك سابق، بل على العكس تماماً فإن النزلاء من الشرطة أو الجيش تكون عقوبتهم أقسى من أمثالهم، وغالباً ما تنتهي بهم التشريفة إلى الموت، والموضوع هنا اعتباري بحت على احتسابهم في صف الخونة لأنّهم شككوا بالولاء المطلق للسيادة السلطوية، بالإضافة إلى اختزالهم في مفهوم العبرة لكل من يتجرأ في تفكيره على طرح أفكار غير مسموح بها قد تدفعه إلى الانشقاق عن القطيع والانحراف عن المسار

المقدس، وعندما يرى الآخر ما كابده (المنحرف) عن المسار يعود إلى مرحلة الرشد العقلي المفترض من قبل السلطة:

"صاح المساعد بصوت مشحون موجهاً حديثه للسجناء

مين فيكم ضابط؟.. الضباط تعو لهون.

خرج اثنان من السجناء، أحدهما في منتصف العمر، الآخر شاب.

- شو رتبتك؟
- عميد.
- عميد؟!!
- نعم.
- وأنت شو رتبتك؟
- ملازم أول.
- همم.

التفت المساعد إلى السجناء، وبصوت أقوى:

- مين فيكم طبيب.. أو مهندس أو محامي.. يطلع لبره.

خرج من بيننا أكثر من عشرة أشخاص.

- كل واحد معه شهادة جامعة.. يطلع لبرات الصف.

خرج أكثر من ثلاثين شخصاً كنت أنا بينهم.

مشى المساعد مبتعداً، وقف بجوار البالوعة، صاح بالشرطة:

- جيبولي سيادة العميد!!

انقض أكثر من عشرة عناصر على العميد، وبلحظات كان أمام المساعد!!

- كيفك سيادة العميد
- الحمد لله... الذي لا يحمد على مكروه سواه.
- شو سيادة العميد... مانك عطشان؟
- لا... شكراً.
- بس لازم نشربك.. يعني نحن عرب، والعرب مشهورين بالكرم، يعني لازم نقدم لك ضيافة... مو من شان شي.. من شان واجبك!!

بعد لهجة الاستهزاء والسخرية صمت الاثنان قليلاً، ثم انتفض المساعد، وقال بصوت زاعق:

- شايف البالوعة؟.. انبطح واشرب منها حتى ترتوي... يالله ولا كلب!!
- لا.. ما راح اشرب.

وكأن مساً كهربائياً أصاب المساعد، وباستغراب صادق صرخ:

- شو.. شو.. شو؟؟؟!!! ما بتشرب!!

عندها التفت إلى عناصر الشرطة العسكرية ولا زال وجهه ينطق بالدهشة:

- شربوه... شربوه على طريقتكن ولا كلاب... تحركوا لشوف.

العميد عار إلا من السروال الداخلي، حاف، وبلحظات قليلة اصطبغ جسده بالخطوط الحمراء والزرقاء، أكثر من عشرة عناصر انقضوا عليه، تناوشوه، عصي غليظة، كوابل مجدولة، أقشطة مراوح دبابات... كلها تنهال عليه من جميع الجهات، ومن أول لحظة بدأ العميد يقاوم، يضرب بيديه العنصر الذي يراه أمامه، أصاب بعضهم بضربات يديه.. كان يلكم... يصفع... يحاول جاهداً أن يمسك بواحد منهم، لكنهم كانوا يضربونه بشدة على يديه اللتين يمدهما للإمساك بهم... تزداد ضراوتهم، خيوط الدم تسيل من مختلف أنحاء جسده... تمزق السروال وانقطع المطاط، أضحى العميد عارياً تماماً(.....) بعد قليل تدلت يداه إلى جانبيه، وأخذتا تتأرجحان أيضاً، سمعت صوتاً هامساً خلفي:

- تكسروا إيديه!!! يا لطيف... هالعميد يا رجال كتير.. يا مجنون!!

لم ألتفت إلى مصدر الكلام. كنت مأخوذاً بما يجري أمامي، مع الضرب بدأ العناصر يحاولون أن يبطحوه أرضاً، العميد يقاوم، يملص من بين أيديهم... تساعده دماؤه التي جعلت جسده لزجاً. تكاثروا عليه، كلما نجحوا في إحنائه قليلاً... ينتفض ويتملص من قبضاتهم وبعد كل حركة تزداد ضراوة الضرب...

رأيت هراوة غليظة ترتفع من خلف العميد وتهوي بسرعة البرق!!.. سمعت صوت ارتطامها برأس العميد...! صوتاً لا يشبه أي صوت آخر...! حتى عناصر الشرطة العسكرية توقفوا عن الضرب، شلوا لدى سماعهم الصوت لثوان... صاحب الهراوة تراجع خطوتين إلى الوراء.. جامد العينين..!! العميد دار بجذعه ربع دورة وكأنه يريد أن يلتفت إلى الخلف لرؤية ضاربه!! خطا خطوة واحدة، وعندما هم برفع رجله الثانية... انهار متكوماً على الإسفلت الخشن!!

الصمت صفحة بيضاء صقيلة تمتد في فضاءات الساحة الأولى... شقها صوت المساعد القوي:

- يا لله ولا حمير... اسحبوه وخلوه يشرب!!

سحب عناصر الشرطة العميد، واحد منهم التفت إلى المساعد وقال:

- يا سيدي.. هذا غايب عن الوعي، شلون بدو يشرب!!
- حطوا راسو بالبالوعة.. بيصحى.. بعدين شربوه.

وضعوا رأس العميد بمياه البالوعة، ولكنه لم يصح.

- يا سيدي .. يمكن أعطاك عمره!
- الله لا يرحمه... اسحبوه لنص الساحة وزتوه هونيك.

من يديه جروه على ظهره. رأسه يتأرجح اختلطت الدماء بأشياء بيضاء وسوداء لزجة على وجهه!! مسار من خطوط حمراء قاتمة تمتد على الإسفلت الخشن من البالوعة إلى منتصف الساحة حيث تمددت جثة العميد.

صاح المساعد وقد توترت وبرزت حبال رقبته:

– جيبولي.. هالكر الحقير.. الملازم لهون.

وبعد أن أصبح الملازم أمامه:

– شو ياحقير؟.. بدك تشرب ولا لا؟
– حاضر سيدي.. حاضر.. بشرب.

انبطح الملازم على الإسفلت أمام البالوعة، غطس فكيه في مياه البالوعة، وضع المساعد حذاءه العسكري على رأس الملازم المنبطح وضغطه إلى الأسفل قائلاً:

– ما بيكفي هيك. لازم تشرب وتبلع!!
– وهلق.. خدوا هالكلب عا التشريفة.. بدي يكون الاستقبال تمام.!

الملازم الذي شرب وبلع المياه القذرة بما فيها من بصاق ومخاط وبول وقاذورات أخرى، ألقي على ظهره بسرعة مذهلة، ووضع اثنان من البلديات قدميه في حبل الفلقة، لفوا الحبل على كاحليه ورفعوا القدمين إلى أعلى.

القدمان مشرعتان في الهواء، ثلاثة من عناصر الشرطة توزعوا أمام القدمين وحوليهما بطريقة مدروسة بحيث كانت كرابيجهم تهوي على القدمين بتناغم عجيب دون أن تعيق إحدى الكرابيج الأخرى، ارتفع صراخ الملازم عالياً، تلوى جسده يحاول خلاصاً، ولكن دون جدوى.

استفز صراخ الملازم واستغاثاته العالية المساعد، مشى باتجاهه مسرعاً، وكلاعب كرة قدم وجه مقدمة بوطه إلى رأس الملازم وقذف الكرة.

صرخ الملازم صرخة حيوانية، صرخة كالعواء... استفز المساعد أكثر فأكثر، سحق فم الملازم بأسفل البوط، عناصر الشرطة يواصلون عملهم على قدمي الملازم، المساعد يواصل عمله سحقاً، الرأس، الصدر، البطن... رفسات على الخاصرة... حركات هستيرية للمساعد وهو يصرخ صراخاً بالكاد يفهم:

- ولاك ع... ولاك حقيرين... عم تشتغلوا ضد الرئيس!!.. ولاك سواك زلمة... سواك ملازم بالجيش... وبتشتغل ضده؟!!... ولاك ياعملاء... يا جواسيس!... ولاك الرئيس خلانا نشبع خبز.. وهلق جايين انتو يا كلاب تشتغلوا ضده؟!.. يا عملاء أمريكا... يا عملاء إسرائيل... يا ولاد ال.... هلق عم تترجوا؟!!... بره كنتوا عاملين حالكن رجال... يا جبناء... هلق عم تصرخ ولاك حقير!!..

على إيقاع صرخات المساعد ودبيكه فوق الملازم، كانت ضربات الشرطة تزداد عنفاً وشراسة، وصرخات واستغاثات الملازم تخفت شيئاً فشيئاً.

بعد قليل تمدد الملازم أول إلى جانب العميد!!. "لا أدري حتى الآن ماذا حل به؟ هل مات أم لا؟.. هل كان لدى إدارة السجن أوامر بقتل الضباط أثناء الاستقبال أو التشريفة؟".

والآن جاء دورنا. "اجاك الموت يا تارك الصلاة!" عبارة سمعتها فيما بعد من الإسلاميين حتى مللتها، ولكن فعلاً جاء دورنا، حملة الشهادات الجامعية، ليسانس، بكالوريوس، دبلوم، ماجستير.. دكتوراه.. الأطباء شربوا وبلعوا البالوعة، المحامون.. أساتذة الجامعات.. وحتى المخرج السينمائي.. شربت وبلعت البالوعة.. الطعم.. لا يمكن وصفه!! والغريب أنه ولا واحد من بين كل الشاربين تقيأ!!

وأصبح بين هؤلاء جميعاً شيئان مشتركان، الشهادة الجامعية، وشرب البالوعة!!

ثم أكثر من ثلاثين، كل فلقة يحملها اثنان من البلديات، أمامها ثلاثة عناصر وثلاث كرابيج... والكثير... الكثير... من القسوة، الألم، الصراخ".[29]

الوصف السابق المتراوح بين الوصف السردي، والحوار يصف حفلة تشريفة بخطواتها المتسلسلة، نلاحظ فيها زئبقية الحدث، إذْ يبدأ بشكل صراع ساكن من أعلى إلى أدنى، ثم يتخذ شكلاً تماسياً يحتد، ثم يأخذ منحى المطاوعة القسرية، ثم ينتهي بالانطفاء دائماً. من الملاحظ بشكل واضح التشفي لدى شخصية السجان لأن التعذيب كما هو ظاهر ليس لانتزاع معلومة أو اعتراف بل هو مزيج درامي من العقد النفسية والأمراض الاجتماعية والتوصيف التاريخي السياسي لصورة السلطة وصوتها، وحفل التشريفة يهدف بشكل واضح إلى كسر العين، وإثبات الوجود، وترسيخ مفهوم العبرة، لذلك كان العميد هو المعادل الرمزي للشخص المتمرد، فبعد الصراع الحاصل بينه وبين المساعد (أعلى/أدنى) سابقاً، (أدنى، أعلى) حالياً، حاول العميد المقاومة، فاستفز السجان لأن سلطته وأناه وُضعتا موضع التهديد التوازني الساحب إلى منطقة اللاتوازن، ومس السطوة التي انتشلته من المكانة المهدورة، فأحس بوجوب القضاء على مكمن الخطر المهدد، والمتمثل بشخصية العميد، لذلك تنامى عند السجان السلوك الاعتباطي المضطرب الهادف إلى تخليص الذات من مأزقها. كذلك فإن استخراجه لزمر معينة من السجناء (العسكرة، الطبية، الأكاديمية بشكل عام) تشير إلى حاجته المستمرة لإثبات أناه وموجوديته إذ "تكمن جوهر سادية الجلاد كما هو حالها بشكل عام في البحث البائس عن الأنا والحاجة إلى توكيد الذات من خلال دفع ضحاياه للاستجابة لحقيقته الذاتية هذا أنا.. أنا هنا.. يجب أن تلاحظ وجودي"(30) وقدرتي التي بإمكانها التغلب على كل قدراتك وتفوقها خاصة أن القوة هنا مفروضة على أشخاص ممتلكين لجانب في العرف الاجتماعي (الشهادة الأكاديمية) يرفعهم إلى مكانة اجتماعية ونفسية مرموقة ما يجعلها تتنامى وتتعاظم بانتصارها وخضوع الطرف الآخر لها. وبانكسار الطرف الأول (العميد) ورؤية النتائج الكارثية المخيفة تتم عملية مفاضلة سريعة في دواخل الإنسان بين تأمين الحياة أو خسارة الكرامة، وتحت غريزة البقاء والتمسك بالحياة يؤثر الإنسان الخيار الثاني على الأول بدليل انصياع الملازم ثم الأطباء والمهندسين وبعدهم الأكاديميين بشكل عام. وفي صرخات المساعد تظهر شرعنة السلوكيات بتصنيف الطرف الآخر (السجين) ضمن الخونة والعملاء وأعداء الوطن على الرغم من تفضيل السلطة عليه وإغداقه بالنعم ولا عجب من

الخائن إذا أنكر الجميل فعادى الوطن والسلطة والأب الحنون الذي (خلاه يشبع خبز) وكان ولياً لنعمة الشعب ومع ذلك جحد به، وتمرد عليه، وخانه.

وكذلك فإن لأصحاب التحصيل العلمي نصيباً من السياسة الممنهجة التي تروي بغض الأعصاب المريضة، وتبرير السلطة يكون بأنهم أصحاب وعي، والمفترض بهم أن يسيروا (معصوبي الأعين) وفق النهج الذي خطته يدا السلطة الحكيمة لكنهم تصرفوا بغباء، فتحملوا نتيجة قلة وعيهم!! وما إن نتعمق في بواطن الأمور حتى نرى أن المبرر يكمن في أمرين؛ الأول: كسر العين لأن المتعارف عليه أن صاحب الشهادة الأكاديمية لديه اعتزاز –ليس المقصود هنا الغرور- إذ أنّه أصبح على مستوى عالٍ من المعلومات والخبرات أهلته للحصول على الشهادة، ولتحطيم نزعة الاعتزاز يعاني مايعانيه:

"شاهدت الكتاب يتهادى بعيداً ببطء وكأنها لقطة سينمائية مبطأة ويهوي قلبي وراءه.. أمضيت سنة وأنا أترجم ذلك المعجم إنكليزي-إنكليزي للغة العربية حتى أنهيت ثلثه، ثم يأتي جاهل برفسة حافر ليقذفه بعيداً"[31]

والأمر الثاني يعود إلى الذات الأنوية للسجان التي ترى أن الطرف المقابل لها يتفوق عليها بتمكنه من الوصول إلى مكانة يعجز عن الوصول إليها، مما يشعره بالنقص الذي يعمد إلى إشباعه من خلال هذه الممارسات التي ترضي الذات القابعة في مكانة أدنى فكرياً وأعلى سلطوياً ما يجعلها قادرة على تحقيق توازنها من خلال فرض أهوائها اللامنطقية وإثبات ذاتها من خلال رجحان كفة القوة على العلم في ظل فضاء قمعي لا معايير تحكمه سوى أهواء الذات:

"أكثر من ثلاثين صرخة ألم .. قهر.. تخرج من أفواه أكثر من ثلاثين رجلاً مثقفاً.. متعلماً!! أكثر من ثلاثين رأساً كل منها يحتوي الكثير من الطموح والأمل والأحلام.. عواء ثلاثين ذئباً.. زئير أكثر من ثلاثين أسداً.. لن يكون أكثر وحشية وحيوانية"[32]

إنه وأد الحضارات والعقول المفكرة من أجل تفريغ النواقص وتحقيق المصالح يجعلان السجين يرزح تحت قبضة الإجهاد النفسي والجسدي الحادين ويتضحان في التكثيف

الترميزي لتحول الإنسان من المستوى الإنساني إلى مستوى الحيوان القادر على الافتراس، ويمتلك القوة لكنه ملجوم، مستلب القوة، مشيّأ إلى مرحلة العجز واللااقتدار. لذلك كانت الممارسات التعذيبية التي تطرح في الرواية ذات دلالة مزدوجة تحيلنا إليها الملفوظات التضمينية ذات الإشارات واسعة الدلالة.

أحوال السجناء:

نلاحظ في الروايات التدمرية بعض السجناء جيء بهم إلى الاعتقال لشبهة ضعيفة، ومع ذلك فإنهم يؤثرون الخلاص من العذاب، ويعترفون بكل ما تريده السلطة ليتضح أن مأرب السجان ليس الاعتراف إنما اجتثاث أي جذر لأي تفكير معارض أو مناوئ لأوامر السلطة، وفي سبيل ذلك يوظّف كل السياسات التي تحارب السجين، وتضعفه، وتدفعه إلى مرحلة الإنهاك، ونتيجة للممارسات الوحشية وما يترتب عليها من ضغوطات نفسية كبيرة تأبى النفس الإنسانية أن تطيقها، أو تتحملها.

وتطرح الروايات السجنية التدمرية نماذج لسجناء وصل بهم الحال إلى الجنون، ويعود ذلك إلى تفاوت الطبائع الإنسانية في التحمل، والتباين بين الأشخاص في قدرتهم التغلبية على المعاناة وصمودهم في وجه الضغوطات كمحاربتهم بأبسط احتياجاتهم من طعام وشراب، وصحة، ونوم، بالإضافة إلى تغليفها بالإهانة والحروب النفسية:

"استمر الجوع ما يزيد عن شهرين. استفحل الأمر. وازداد الجلادون في تعذيبنا بالجوع. كان رغيف الخبز يقتسمه عشرة. صار يقتسمه عشرون. لا يكاد يحصل الواحد على لقمة. من كان يملك إيماناً عميقاً حافظ على خلايا دماغه من التلف. بعضنا جن أو كاد. أحدنا انقطع به حبل الصبر فهوى. فز مثل جني. ركض باتجاه باب المهجع. طرقه بشدة وراح يصيح. بدي اعترف.. بدي اعترف.. ارتجف العميد. أطبق بيده على فم المحبوس. دفعه المحبوس ثم هوى بلطمة من يده على وجه العميد. تراجع العميد إلى الوراء مذهولاً. فتح الحارس الباب تله من عنقه للجبين وجثى على صدره:

- شو بتقول ولا

- بدي اعترف
- لم يعد للاعتراف قيمة. هنا جيء بك لتموت ألف مرة قبل أن تموت الميتة الأخيرة. مجيئك إلى هنا هو موت بالتقسيط. ولكن كل دفعة من الموت لا تساوي جزءاً منه، بل تساوي أضعافه. شحطه بمعاونة آخر من رجليه وأدخلوه على (أبو نذير):
- سيدي بقول بدو يعترف.
- شو يعترف؟؟! تعا ولا...

أكملوا شحطه حتى صار قريباً :

- بشو بدك تعترف...
- سيدي: الرئيس هو أمرنا بالجهاد وأنا بدي لبي طلبو.. بدي احميكن من الإخوان... رايحين يهجموا عليكن بالطيارات.؟!
- يهجموا علينا؟!
- آه سيدي... اه سيدي..
- الإخوان عندن طيارات؟!!
- سرقوا طيارة الرئيس سيدي...

فقد (غسان) عقله على الحقيقة. اختلجت عينا (أبو نذير). أرجع كتفيه إلى الخلف. ثم دنا ففتح درج مكتبه. أخرج إضبارة. وقع حكم الإعدام. لم تطلع الشمس من بعد على ذلك المسكين!!"(33)

نلاحظ في المقطع الروائي السابق خروج السجان من السياق المتعارف عليه، فقد تحول التعذيب من هدفه الرئيسي في انتزاع المعلومات إلى دافع مشحون ب "الرغبة العدوانية في نسف الذات الشخصية للنزيل والانتقال به إلى درك من الدونية والتشيؤ أشد إيلاماً من افتقاده لحريته نفسها"(34) والهدف من ذلك هو اجتثاث أي تمرد أو رفض أو مناوءة للسلطة قد تمس مصالحها، أو تؤثر عليها، وبعد فقدان الإحساس النفسي عند السجين هنا يمكن التخلص منه لأنه أصبح كائناً معدوم القدرة والمقاومة وليس مستلَباً إياهما.

وتطرح رواية القوقعة كذلك حالة دكتور الجيولوجيا الخمسيني الناجح، الذي حاز على شهادة الدكتوراة في الجيولوجيا من أمريكا، وعاد إلى بلده، وتسلَّم مؤسسة علمية مهمّة، وبسبب تدينه والتزامه بفروض الصلاة والصوم وغيرها من الفروض الظاهرة، كان هذا سبباً كافياً لاتهامه في خضم دوامة الأحداث واشتداد توتر الأوضاع بين الإسلاميين والسلطة، وعند اعتقاله في سجن تدمر أصيب بحالة نفسية انعزالية، فأصبح يجلس بمفرده، ويغطي نفسه بالبطانية في الحر أو البرد -لا فرق عنده- دون أن ينبس ببنت شفة. يتم إدخال الطعام والشراب له تحت البطانية، ويقاد سحباً إلى حمام الغسل، ويذهب ملفوفاً ببطانيته لقضاء حاجته.[35] كيف لإنسان وصل إلى هذا المستوى العلمي والحياتي المرموقين أن يتحول إلى شخص يعامل كالبهائم. يهان، يذل، يعذَّب، ويصارع من أجل فتات الطعام، لذلك دخل في حالة انطواء اكتئابية انعزالية كالمخدَّر شعورياً، والمنفصل عن العالم من حوله بعد أن تحوّلت حياته بشكلٍ جذري، وكثيرة هي حالات الجنون في صفوف السجناء التي عرضت لها الروايات التدمرية، فمنهم من يدعي النبوة[36] ومنهم من يدعي معرفته بالرئيس[37] ومنهم من يكتفي بالصمت، وكل هذا وغيره من الأمراض النفسية التي سببتها ضغوط السجن اللامعقولة:

" الجنون كان ثمرة من ثمار امتلاء القلب. والصبر كان ثمرة من ثمار استبقاء العقل. حين قاومنا الجنون استطعنا أن نصبر. أنى للذين فقدوا عقولهم أن يصبروا؟!!! كل شيء هنا كان يدفعنا إلى الجنون، إذاً كل شيء كان قادراً على أن يفقدنا الصبر!!! من صبر نجا. ومن تخلى عنه الصبر جنّ. ومن جُن ألقى بنفسه في أرجوحة الخواء!!"[38]

كان تقسيم المصيبة على المجموع تمسكاً بالعقل وتقوية للإيمان، إذ إن التشارك مع الآخر في المصاب الواحد أخف وطأة على النفس من الحمل الفردي له، وعندما تكون المأساة جماعية تخف وطأتها على النفس الإنسانية، ومع ذلك فإنّ القدرات في التحمل تتباين وتتفاوت تبعاً للاختلاف الإنساني وفرادة الشخصية الإنسانية، لذلك نجد تعدد حالات التأثر في الروايات التدمرية.

ومن الحالات أيضاً المطروحة في الروايات حالة الانفصام التي يعاني منها السجين، وقد طرحتها رواية "السوريون الأعداء" من خلال بطل الرواية الدكتور عدنان الذي أصيب بانفصام نفسي عن الواقع، وتشظّى ذاتياً إلى الدكتور عدنان والرقم(77)، وهو رقمه في المهجع الذي ينزل به في سجن تدمر، ويصور المقطع التالي حالته النفسية المؤدية إلى الانفصام:

"يتميز نفسه مشلولاً كسيحاً طيعاً وخنوعاً إرادته مكسورة، بصمة تدمر، وسم بها، لعنتها التصقت به كان بينهم وغائباً عنهم!! ما يهجس به ينعكس عليهم إذا كان مثلهم. فلماذا ليس واحداً منهم؟ يرثي لهم، أم يرثي لنفسه؟ أي عالم هذا؟! المتفرج البليد، أفكاره تتخابط، ولا تركيز، يرى رفاق السجن، وهو معهم على شاشة، بل لوحة سوداء، كانوا فيها أشد سواداً منها!!! إذا كان هو هناك، فمن يكون الناظر إليهم؟ هل كان هو نفسه؟! كيف يستقيم كونه منظوراً إليه، بينما ينظر إليهم؟

ما الذي أصابه؟! ضائع بينهم وعنهم. كانوا أفضل حالاً منه، يحسدهم وجدوا بلسماً لجراحهم، يقاومون جلاديهم بالقرآن والدموع والذكريات والحنين والدعاء أما هو فبالجنون. لا، لم يكن الجنون، بل ما يشبهه، النوع الأسوأ منه. لم يدرك ما حل به إلا بعدما أحس أنه فقد شيئاً من نفسه، ما تخوف منه، أوغل فيه، وتمكن منه.. انفصل عنه. ربما كان الوحيد الذي ترك نفسه لهذا الجنون الأسوأ، يشطره إلى اثنين، شيء ولا شيء، يقضمانه على مهل.

لم يأت هذا الخاطر المرعب، إلا عندما تعرف إلى الشيء. شطره الآخر الرقم (77) الخانع والراضخ لقوانين تدمر، المتقيد بأوامر الجلادين، خافض رأسه، لا يطول سوى أقدامهم، ترهبه أصواتهم، يصدع بما يأمرونه به، يكنس الأرض بلحيته، ويمسح الوخم والقاذورات بصدره، يتوسل إليهم، ولا يتوانى عن الركوع أمامهم ولعق بساطيرهم... أما هو، فكان لا شيء.

هل أنا هذا الذليل، المعرض للشتم والضرب والدعس بالبوط؟ ليس أنا، بل أنت أيها الرقم 77."[39]

إن التوقف الزمني النفسي مع الانقلاب المكاني الوجودي من خارج إلى داخل جعل السجين يتشظى إلى شخصين، موجود مستلب الإنسانية، منتزع الكرامة (رقم)، وآخر سرابي غير موجود في الزمن الآني، تُرك عند حدود الحرية الزمكانية وهي الطريقة الوحيدة التي احتمى بها السجين، أو حمى أناه وجوهرها ليستطيع تحمل الانسحاق الإنساني المفروض، فهو شخص آخر منصهر في ذاته الماضية لأنه لم يستطع تقبل الذل والقهر الواقعين على ذاته الحالية –التي لم تعد حتى تخضع لمسمى الذات وتلاشت في التنكير الرقمي للسجين- يعيش مع عائلته وحياته السابقة (في الزمن الماضي) بشكل خفي داخلي ضمني ذاتي. وقد عجز عن الاندماج مع القطيع بشخصيته الحقيقية الطبيعية، واستغرب من قدرة رفاق السجن على إبداء الانفعالات والتصبر، بل حسدهم على قدرتهم التحملية رغم وضعهم المأسوي.

إذن، الانسلاخ القسري عن الذات الموجودة حقيقة بعد التشيؤ جعله ينشطر إلى لا شيء (غير موجود) أو بالمعنى الأصح موجود سابق ومختلق آني، إنه يتشبث بماضيه الإنساني الذي كان يمتلك فيه الإرادة والكرامة ليتخلص من عبء الواقع وثقله من خلال العودة إلى حياته السابقة بتفاصيلها (العائلة- البيت- العمل- العيادة- المرضى وحالاتهم). وانفصال الأنا عن الآخر في دوامة الاغتراب الوجودي أو لنسمّه الانشطار الإنساني كان الطريقة الوحيدة للتغلب على السجن على الرغم من أن الانفصام حالة نفسية سيئة لكنها مقارنة مع وضع السجين في الرواية التدمرية كانت الملجأ الوحيد أمام نمط إنساني معين للاستمرارية والصمود، وتحمل أشياء لا تحتمل من الهدر الإنساني.

وغالباً ما يصاب بعضُ السجناء بالأمراض النفسية في الفترة الأولى من اعتقالهم، لكنهم جميعاً يعانون من الاضطرابات النفسية، وسبب ذلك هو طبيعة سجن تدمر اللاإنسانية التي تفرض قيودها على كل شيء، وتحارب الإنسان في كل شيء، إذ يستغلّ السجان أيّ تفصيل ليحوله إلى عقوبة، وإن لم يجد فإنه يختلق ذلك كي لا يترك أي مشهد تفصيلي يمر دون استغلاله لإنزال عقوبة على السجين، وتجريعه صنوف الألم جراء ما لم يفعل أو فعل مهما كان الفعل بسيطاً، فيبث سموم الويلات والتعذيب في كل تفصيل من تفاصيل الحياة المعيشة؛ فمثلاً يوم الاستحمام يحوله إلى يوم جحيمي بامتياز، في الشتاء ماء

شديد البرودة، وفي الصيف ماء تصل حرارته درجة الغليان مستغلاً التعاكس الفصلي للمناخ التدمري وشدته، فالشتاء لئيم خشن، والصيف حاد لهاب، وتزداد مرارتهما باقتناص السجان أيّة فرصة تزيد من معاناة السجين:

"حفلات التعذيب تبدو كأنها انصياع لهوس استحوذ عليهم، يستجلبون به المتعة ببث الهلع في نفوس المساجين بإسالة دمائهم والتسلي بإذلالهم، وكلما تعالت توسلات المرضى والجرحى، زادوا من عياراتها مع التفنن فيها. كانوا يأنفون من ضربهم بأيديهم على وجوههم، فيدوسونهم بأقدامهم، ويلبطونهم بأحذيتهم على الظهر والبطن. وإذا استجاروا بالله، يستعينون به على تحمل بلواهم، يصفعونهم بالشحاطات البلاستيكية ويلقمونهم إياها في أفواههم أما المزيد منها فعقوبات بالغة القرف، يجبرونهم على أكل الصراصير والذباب... لا ضير عليهم أو محاسبة، مهما غالوا في العقوبة حتى لو تسببوا بموتهم. كان مسموحاً لهم قتل عشرين بالمائة منهم على الأقل من دون مساءلة أو حساب، إذ هي مسألة تقديم وتأخير، ما الفرق إن تقدم موتهم إعدامهم؟

وكان خروجهم إلى الحمام، أو حلاقة الذقن وشعر الرأس، مناسبات لإيقاع الأذى بهم، بحلاقة تصيب الوجه بالجروح، وأجسامهم بالسياط، بذريعة تنبيههم إلى الاقتصاد في استخدام المياه مع أنها متوفرة، لكن لئلا يداخلهم إحساس أنهم بشر مثل غيرهم يحلقون ويتحممون.

أما منحة التريض، ففي باحة التنفس، وهي ساحة صغيرة أشبه بقبر بلا سقف، جدرانها عالية مسورة بأسلاك شائكة مكهربة، يمشون رتلاً بشكل دائري، الواحد وراء الآخر، زمناً لا يزيد عن نصف ساعة، لا كلام أو همس، رؤوسهم منكسة"[(40)]

من أين ينبع مبدأ اقتناص الفرص الذي يتّبعه السجان وكيف له أن ينتبه إلى موضوع كالاستحمام وتسخيره في خدمة بطشه؟ إنه الجحيم التدمري الممنهج على انتزاع الإنسانية وتغريب الإنسان في واقعه بسبب ما يعانيه من عبثية لا معقولة من قِبل نماذج إنسانية غريبة مسيّرة بتخطيط دقيق وصائب وموجَّه، وماذا إن انتهت التفاصيل التي يقتنصها من الواقع اليومي؟!:

"قبيل دخولنا خبّأ الرقيب أحد المساجين وأمر رئيس المهجع بعد الصف، وكنا لكثرة الخوف نقف عشوائياً. فخيل إليه أن التعداد كامل لم ينقص منه أحد

–سيدي المهجع كامل التعداد.

–وهذا السجين من أين أتى؟! قالها الرقيب وهو يدفع بصديقنا المخبّأ إلى الصف.

عوقب الرئيس بكسر ضلع بعد أن ضربه أربعة عسكريين بكل ما أوتوا من ضراوة وشراسة وبقي هذا الأخير يبول دماً للأيام الثلاثة المقبلة"[41]

عندما لا يجد السجان ما يعاقب السجين عليه، أو تنتهي التفاصيل اليومية التي يستطيع استغلالها في تدمير نفسية السجين، فإنه يختلق العقوبات الفردية ذات المنعكس الجمعي أو الجماعية بشكل عام ذات المنعكس نفسه، وإن لم يجد ما يختلقه تكون العقوبة تعسفية بدون سبب، فمثلاً يفتح باب المهجع بكل بساطة، ويأمرهم بالخروج لتلقي العقوبة الهادفة ربما إلى تعديل مزاج رقيب أو مساعد، وقد تنتج العقوبة عن أخرى، مثلاً يتم تكسير الزجاج ورميه على أرض الباحة، ثم يتم إجبار السجين السير عليه، إن صرخ السجين فستحل عليه عقوبة أخرى، وعليه أن يتجرع الألم بصمت مطبق بلا حول ولا قوة، ومتى شاء السجان ينتقل من عقوبة إلى عقوبة أخرى مستغلاً هذا في جعل فضاء السجن مرتعاً لتفريغ الحقد والنواقص النفسية وإثباتاً لامتلاكه السلطة والتحكم بإنسان آخر.

أنماط السجناء:

تتعدد الأنماط الإنسانية في الرواية التدمرية إذ إن السجن التدمري يعد مجتمعاً مصغراً عن المجتمع الخارجي، ويصفه علي أبو الدهن في روايته عائد من جهنم فيقول: "حقاً نجد في السجن مختلف الأنواع والأشكال الفكرية، منها الخيّر ومنها الشرير، فالبعض يخطط لبناء مستقبل شريف والبعض الآخر يختلق نظريات الازدهار بوسائل شتى... فهناك المفكر الذي يرسم معالم التغيير في سياسات بلده الداخلية والخارجية، والعسكري الذي يحلم بالمناصب العالية لا لشيء إلا ليوقف الفساد في المؤسسات العسكرية، ويزيل المحسوبيات والتعديات التي لا يخجل بعض الضباط والعسكريين من المجاهرة بها. ترى

كذلك الطبيب الذي سجن لأنه لم يجد تسويق نفسه تجارياً، فلم يبق له سوى القسم بشرف المهنة بعد أن سقط جريحاً في المعركة... والمحامي الذي أخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع عن الحق و صون الحريات فتصادم مع محامي السلطة حامي النظام والفساد، ومعه الصحافي ذو القلم الحر والعقل النير الذي رفض أن يبيع ضميره ويجير قلمه لمصلحة الفسق"[42] و "السجن مجتمع مصغَّر، وعينة عما قد يجده الواحد في دنيا الحرية. لذا ترى بيننا الطيب والخبيث. المتكبر والمتواضع، الكريم والبخيل، دمث الأخلاق وسيئها.. ومنهم أيضاً الصامت الذي لا يكلم أحداً، والخائف، أو الحزين الذي يبقى في زاويته طول النهار يبكي. منهم من يتذكر أولاده، وأهله، وعائلته، فيضحك لذكرى ويبكي لأخرى، فترتسم على وجهه سمات الوجل حيناً ومسحات خجولة من الفرح الهارب أحياناً .. أما الأقوى فهو ذاك الذي استحبس داخل سجنه، فأطلق العنان لمصيره، لحياته أو موته، أو لعله يحصر تفكيره بالحالة الوسطى ما بين نبضة الحياة وشخرة الرحيل."[43]

وتبعاً لتنوع التصرفات والسلوكيات تتنوع مصادرها، فنرى من أنماط السجناء التي طرحتها الروايات التدمرية النمط المتشدد، وغالباً ما يكون النمطُ المتشددُ نمطاً ساذجاً متطرفاً، متحجر الفكر، يسعى دائماً إلى توسيع دائرة حزبه الفكري، ونشر قناعاته، مستهدفاً الشبان الصغار ممن يسهل السيطرة على تفكيرهم وإعادة تطويعهم بما يوافق أفكار أمير الجماعة، كما يسعى دائماً إلى إثارة الثغرات الهادفة إلى الانقسام لأنه في كل جولة كلامية ينتصر فيها –إذ إنّه بلاغيٌّ متقن ومتكلم بارع – يكسب العديد من المناصرين الجدد المنضمين إلى حلفه، ويتعمد إثارة النقاشات مع الأشخاص غير الممتلكين للقوة الكلامية، والذاكرة الحفظية، والقدرة على اقتصاص الشواهد الدينية من سياقها، وتوظيفها كما يفعل:

" عشرة أيام تقريباً قسمت المهجع إلى معسكرين، أبو القعقاع وجماعته من طرف، وباقي المهجع من طرف آخر. واستطاع أبو القعقاع ببراعة أن يكسب عداء الجميع، خاصة أنه استمر في إحراجهم وتحديهم بعد رفضهم الدخول في سجال معه حول جوهر الدين الإسلامي وتعاليمه"[44]

وتمثّل شخصية أبي القعقاع نموذج السجين التدمري المتشدد، فهو –في الرواية– شخصية أمير من أمراء الجماعات المتشددة، يخطط وينفذ للعمليات المناوئة للسلطة، وقد شاع عنه فيما بعد ضعفه واستسلامه تحت التعذيب ما سبب وقوع الكثير من أفراد التنظيم في قبضة السلطات، لذلك كان محاطاً بدائرة الناقمين عليه والمتوعدين له، وعند نزول أبي القعقاع إلى المهجع التدمري بدأ بسرد قصة اعتقاله التي تنفي عنه ما زعمه بعض معارفه لتلتف حوله مجدداً فئة المتشددين، فيوسع محيطه بالطريقة المذكورة نفسها، ثم كان الإعدام نهايته.

ومن الأنماط أيضاً؛ السجين صاحب الخلفية السيئة، وغالباً ما يتحول بدوره إلى بوق للسلطة يعمل كمخبر لها، ويتراوح بين صاحب النفوذ الذي لا يعاقب، ويتقاسم ما يسطو عليه مع السجانين ضمن خلفية مصالح متبادلة، والسجين البسيط الذي يحاول الحظوة والسطوة عند السجان من خلال عمله كمخبر، وهذا النمط تتعامل معه السلطة بحسب أهوائها من جهة، وصحة ما ينقله من أخبار من جهة أخرى لأنه قد يتبع الأسلوب الانتقامي التلفيقي، فيدّعي الاتهامات لكل من يعاديه، وقد تطرقت الروايات إلى هذا النمط على تعدد صوره[45]، وقد عرضتها رواية "يسمعون حسيسها" في صورة "خشان المسلمي" زعيم عصابة في الاتجار بالمخدرات، فهو مصطنع للمشاكل، عديم الضمير، وعندما وصلت حماقاته إلى مرحلة الذروة التي لا تحتمل وينبغي الرد عليها، اتخذت ردوده منحى آخر:

"استغل (خشان) تدخل الشيخ (صفوان)، وهدد بأنه سينقل إلى الشرطة أمر تنظيم الحلقات السرية وأن أصحابها يقومون بالتخطيط لعمليات إرهابية، ولا يفترون عن لعن الرئيس وشتمه... ولم ينتظر (خشان) إلى اليوم التالي ففي العد المسائي، همس في أذن الشرطي أن لديه أخباراً خطيرة يريد توصيلها إلى مدير السجن، وأنها مستعجلة، وفي مصلحة الدولة. جذبه الشرطي بطوله من ياقة خرقته ورفشه في بطنه، وصاح فيه:

طلاع ولا... والله انت كذاب ابن كذاب...

(.....)

دخل (خشان) بطوله الفارع إلى غرفة المدير. صاح المدير بمعاونيه:

-قربوا هالجرو لقدام... قربوه...

-حاضر سيدي...

-شو في عندك..؟!

-أخبار خطيرة سيدي...

-شو..؟! حكي ولا... ياحيوان... هو الحيوان بعمرو بيفهم... هات لنشوف....

-سيدي في تنظيمات جوا المهجع...

-والله؟! شو يعني تنظيمات..؟! (قال ذلك وهو يرجع ظهره على كرسيه إلى الخلف ويسحب نفساً عميقاً من السيجار الذي بين إصبعيه ثم ينفثه في الهواء)

-عاملين سيدي تنظيمات... بيعطوا دروس بعملية الاغتيال..!!

-يا لطيف... اغتيال؟! اغتيال مين ولا؟!

-اغتيال الرئيس سيدي...

-الرئيس مين... أنا ولا..؟!

-لأ سيدي... الرئيس... الرئيس...

-اغتيال الرئيس .... (قال ذلك وهو ينفجر من الضحك) اغتيال الرئيس...؟! مين...؟! ولا هولي رح يموتوا قبل ما يطلعوا من هالسجن يا حيوان... (وتتابعت ضحكاته الفاجرة، ثم التفت إلى معاونيه)، وقال:

علمولي هالحيوان سنة... بدّياه كل يوم ياكل قتلة حتى ينسى حليب إمو..."[46]

وما (خشان المسلمي) إلا نموذجاً للسجين الذي يحتمي بالسلطة ظانّاً أنها ستمنحه السطوة والقدرة على بسط نفوذه، لكنها لا تكتفي بعدم تصديقه، بل تقتص منه، وتعاقبه متى أرادت حتى لا يطمئن إلى أنه محمي مقابل الخدمات الإخبارية التي يقدمها.

وقد يكون السجين صاحب خلفية سيئة لكن تحول داخل أسوار السجن، مع ما شهده من عذابات، إلى شخصية طيبة، وقد طرحت رواية "يسمعون حسيسها" شخصية (الزعيم) الذي لم يكن له علاقة بأي تنظيم سياسي او حزبي، وكان من المقيمين في المواخير، ارتكب من الخطايا أكبرها وأصغرها، ولكن عند اشتداد الأحداث في مدينة حماه أخذته الحمية بأبناء حارته المحاصرين وحاول إيصال مادة الطحين إلى أحد الأفران كي يخبزها لهم، وتم القبض عليه حينها، وتمت محاكمته على أنه قائد تنظيمي في حركة الإخوان، عنما نزل في سجن تدمر كان ما رآه كفيلاً ليتحول إلى إنسان آخر، وصل به الحال إلى حفظ القرآن كاملاً!!.

ولدينا كذلك نمط السجين الطيب ويشكل هذا النمط الغالبية العظمى من السجناء في الرواية، وأبطال الروايات جميعهم يندرجون تحت هذا المسمى، منهم (الفدائيون) وهم "مجموعة من الشباب الأقوياء ذوي الأجساد المتينة، تطوعوا من تلقاء أنفسهم للقيام بالمهام الخطرة التي تحتاج إلى قوة تحمل أو سرعة، مثل إدخال الطعام إلى المهجع، أو إذا تم تعليم أحد المرضى أو الشيوخ من قبل الحراس، فإن أحد الفدائيين ينوب عن هذا المريض في تلقي الخمسمائة جلدة"[47] وكان لدى كل مهجع فرقة فدائية تحمل أعباء القيام بالمهام الشاقة، وغايتهم كانت بصدق نيل الشهادة في سبيل إنقاذ الآخرين، ودافعهم إيمان صادق وعميق، ولا تخلو رواية تدمرية من التعريج على الفدائيين لما لهم من دور ملحوظ في يوميات السجن.

وكما ذكرنا فإن أبطال الروايات الرئيسيين وما يلوذ بهم داخل السجن هم من النمط الطيب، ولا يسعنا المرور على كل الشخصيات من هذا النمط، وتمثل شخصية الشيخ (فاروق) مثالاً موفقاً عن هذا النمط[48]، الشيخ الأربعيني الفدائي الودود، خفيف الظل، دمث الأخلاق، واسع العلم، لأنه كان عميد كلية الآداب في الجامعة، شخص منفتح

فكرياً، من عائلة موسرة نوعاً ما. كان يتقاسم ما يأتيه في الزيارات مع بقية زملائه في المهجع أو بالأصح كان يطلب من عائلته أن تأتي له بأشياء تكفي المهجع جميعه لينال كلُّ واحدٍ من نزلاء المهجع قطعة ما. يشكل الشيخ فاروق نموذجاً جميلاً للسجين الطيب بما يفعله، وما يتحلّى به من أخلاق، وما يفعله من فضائل.

البلديات:

شخصية ازدواجية في الرواية التدمرية، وتوضح بدقة ما يطرأ نفسياً على شخصية الإنسان المتعرض للهدر، فيحاول ترميم نواقصه وتعويض ما استلب منه، والبلديات هم مساجين القضايا غير السياسية كالعساكر المتخلفين، واللصوص ومختلف الأجرام التي لا تندرج تحت التصنيف السياسي، ومهمة البلديات القيام ببعض المهام كالحلاقة، والطبخ، وتوزيع الطعام، وغير ذلك، ولهذا كانوا يتمتعون بشيء من الامتيازات. ونظراً للتفاعل الاجتماعي بين هذه الفئة من السجناء وغيرهم فإننا نلاحظ استغلال البلديات هذه السطوة الزائفة، واستلالهم متنفساً منها لإيجاد ال(أنا) الضائعة تحت أقدام السجان الحقيقي:

"تحول البلديات وهم مساجين القضايا غير السياسية إلى جزارين وجلادين مثل العساكر. أعطتهم إدارة السجن سلطة الركل والشتم والضرب. الصفعة التي تأتيك من الرقيب أو العسكري مهما بلغت قسوتها فلا تبلغ قسوة الضربة التي تأتيك من البلدية؛ الأولى متوقعة والثانية غير متوقعة."(49)

كيف لسجين يرى ما يعاني سجين آخر، وذاق مرارة العذاب أن يظلم، ويعنف، أو يمارس بطشه على الآخر؟؟!!، كيف لمن تجرع الظلم أن يظلم بنفس الطريقة؟؟؟!!!. باختصار إن التحول الإنساني الذي يطرأ على نفسية البلديات يرتكز على سحق الإنسان ووضع إنسانيته في مأزق ضيق، وعندما يعين كبلدية فإنه يوضع في مكانة وسطية بين ساحق ومسحوق/عاجز وقادر، فيفرغ غضبه الداخلي على السجناء إما من باب التفريغ أو من باب اكتساب امتيازات خلاصية أو إضافية والتماهي مع إرادة السجان لكسب رضاه من خلال الالتزام بفروض الطاعة وتطبيق الأوامر:

"تحول بعض البلديات مع الزمن إلى وحوش مفترسة تنهش في جسدنا أكثر مما يفعل زبانية العذاب أنفسهم. كان أكثرهم بلا أخلاق. ولطول عهدهم هنا، وقلة صبرهم على محكومياتهم تحولوا إلى كلاب في أيدي الرقباء والعساكر. وكانوا أداة اقتصاص يستخدمها هؤلاء العساكر حين يطيب لهم أن يتفرجوا على ضحاياهم يعذبون أمامهم وهم يضعون رجلاً فوق رجل.

في يوم الحلاقة كان يتم جزء من هذه الأهوال التي لا تصدق. [ومنها أنّ أحد العساكر كان قد حقد على أحد المساجين، وكان أحد البلديات يحلق لهذا السجين، فاقترب العسكري من البلدية، وهمس في أذنه، وتراجع إلى الخلف.]. ابتسم البلدية نصف ابتسامة وهز رأسه وظل صامتاً. بعد أقل من دقيقة كان السجين يصرخ ويستغيث، ويقفز مكانه. كانت يداه مقيدتين فلم يستطع أن يتدارك نفسه. اجتمع عليه عدد من الحرس. استمر في صياحه واستمر الدم يثعب من جهة أذنه. تقدم البلدية إلى العسكري الذي وشوشه، وقدم له ما في يديه. تناولها العسكري؛ كانت قطعة من أذن ذلك السجين المسكين. وفيما كان صراخ السجين يتعالى، والحرس يلتفون حوله يوسعونه ضرباً كان العسكري يمد أصابعه التي التقطت أذن تلك الضحية، ويضعها تحت أسنانه يعض عليها كأنه يفرغ شحنة هائلة من الحقد والضغينة، ثم يلوك تلك الأذن بين فكيه، ثم يلفظها، ويتبع ذلك بسيل من الشتائم...!!!"(50)

في المقطع السابق تتحد عصارات الأمراض النفسية لشخصين في نقطة تفريغ واحدة، الأول(السجان) يحاول أن يطبق مبدأ التحكم الناعم من خلال الثاني (البلديات) العناصر الممسوكة جيداً والتي تأتمر بأمره، فيعطي الأمر لعنصر البلدية، ويتراجع آخذاً وضعية المتفرج كطرف خارجي لا علاقة له بالتنفيذ، وهنا يكون دور البلدية بإثبات الولاء المنتظَر الذي يخلِّصه من المصير المشابه لما يقع على غيره. بالتأكيد هناك أفعال لا إنسانية تأبى النفس تنفيذها على الرغم من مرضها، ولعل السجان أراد تفريغ ساديته بطريقة غير مباشرة، ويتضح المرض النفسي بالتصرف الذي تبع لاستلامه قطعة الأذن، بعدها راح يلعن، ويشتم بعد أن حاول مضغها.

ومن الشخصيات التي ضمنتها الرواية في البلديات شخصية (أبو اصطيف) مسؤول الكشك الذي استحدثه المدير الجديد في باحة السجن كمصدر دخل تعود أرباحه له، وعهد بأمر كل كشك في كل مهجع لأحد من البلديات، (أبو اصطيف) أحد أولئك المسؤولين، وهو أحد البلديات، أما عنه فهو شخص شديد السوء، لا رادع للؤمه ومكره وكذبه وافترائه، يحاول تحصيل أرباح إضافية من السجناء خلسة عن أعين المدير:

" لم يكن (أبو اصطيف) على وفاق مع أحد في ساحة مهاجعنا التي تضم ما يزيد عن ألف سجين، وأظنه لم يكن على هذا الوفاق حتى مع نفسه. إذ كان دائم الكشرة، سريع الغضب، لا ينطق بجملة إلا ويتبعها شتيمة من العيار الثقيل. ولم يكن يتورع أن يدخل في عراك مع أي أحد، وكان يستغل حظوته لدى المدير في ذلك، فيبطش أحياناً دون أن يجد من يسأله أو يحاسبه. وكان إذا وُوجه بأي تهمة من التهم التي يشتكيه فيها السجناء عند الرقباء ينكرها بسهولة وبساطة دون أن يرف له جفن، أو يتحرك له شعور، وكثيراً ما كال التهم الباطلة لعدد من النزلاء، فأوقعت الشرطة بهم، دون أن تتحقق، شتى أصناف العذاب وألوانه. كان كاذباً ولصاً ومدعياً وخائناً بامتياز!!"[51]

باختصار تحول عناصر البلديات إلى أشخاص متحدين مع السجان في السلوكيات التي تُطلب منهم. ينفذون دون تفكير، خاصة أنهم أساساً ينتمون إلى فئة غالبيتها مجرمة (سرقة، قتل، ....) وهؤلاء في طبيعة الحال لديهم مشاكل نفسية، فكيف سيكون حالهم إن دخلوا سجن تدمر؟! بالتأكيد ستستلب بقايا الإنسانية والضمير لديهم –إن وجدت–، وينفذون ما يؤمرون به أياً كانت طبيعته في سبيل الخلاص من العذاب والتمتع بصلاحيات ليست ممكنة لغيرهم.[52]

السجين ما بعد تدمر:

إن الأهوال والويلات التي يعاني منها السجين في خضم التفاعل الحدثي وتطوره داخل أسوار السجن، في فضاء روائي معادٍ محفوف بالاضطهاد ومؤطر بالقمع وتبعاته، يمتد تأثيرها النفسي ليتخطى حدود الزمان والمكان لنقطة المفارقة بين السجين وسجنه، فنجد الروايات تتحدث عن السجين في مرحلة ما بعد الإفراج، وعن امتداد آثار تدمر المتراكمة

جراء المعاناة متعددة المناحي، فتراه يعاني من الفراغ الوجودي، وخللٍ في تقدير الذات، وقلقٍ وخوف دائمين، وضيق تنفس واكتئاب، وفزع، وحب انعزال، وكوابيس ليلية، واضطرابات نوم(أرق– كوابيس–اختناق)، واكتئاب واكتئاب مرحلي (مؤقت) مفاجئ، وخدر شعوري أو إنهاك شعوري (إفراط شعوري غير مبرر: بكاء هستيري مفاجئ، وضحك هستيري متبوع غالباً بصمت أو بكاء) ، وتبلد مشاعر، واضطرابات في الذاكرة، ونوبات الغضب:

"منذ أن خرجت من السجن أحسست أن هناك هوة لا يمكن ردمها أو جسرها بيني وبين الآخرين، حتى أقرب الناس إلي، إخوتي أو لينا، أكتم عواطفي ومشاعري فلا أشعر تجاههم بشيء، الحيادية في المشاعر، لا شيء يشدني، لا شيء يثير اهتمامي.

لكل إنسان لغة تواصل خاصة به يستخدمها بإقامة العلاقات المتفاوتة في القرب أو البعد عن الناس، هذه اللغة.. لغتي الخاصة بالتواصل مع الناس، مفقودة.. ميتة، والأكثر من ذلك ليست لدس رغبة بالمطلق في إيجاد لغة تواصل جديدة، أو إحياء قديمة"[(53)]

وأهم هذه الأعراض هي عدم تقبل البشر الطبيعيين، وعدم القدرة على التكيف مع المحيط البشري الطبيعي، والمقصود هنا بكلمة الطبيعي الذي لم يدخل ويعاني داخل سجن تدمر:

"كان من أغرب المشاهد حقاً وعلى قرابة خمسة وثلاثين أخاً يستقلون الباص معي أن نبصر رجلاً طبيعي الهيئة، معافى البدن، يقهقه ملء شدقيه بلا خوف ولا وجل. بعد أكثر من عشرة أعوام أمضيناها في سجن تدمر الصحراوي، لا نبصر إلا وجوه المعتقلين صفراء ناحلة، ورؤوس نزلاء الزنازين محلوقة كالبطيخة الملساء وهاماتهم مطأطئة من القهر على الدوام تتلقى كل أصناف العذاب ولا حق لها أن تنبس ولو ببنت شفة![(54)]

كذلك يعاني من التردد في القيام بأي تصرف خوفاً من أي نتيجة، ونجده يعاني من الانفصال عن الواقع لفترة بسيطة والتوهم بأنه موجود آنياً داخل السجن، وقد يتطور معه الأمر كثيراً ليصل إلى الانتحار[(55)].

يحيا السجن بكل تفاصيله مع السجين، يرافقه في حياته القادمة، ويلازمه فيها حتى يبدو كالوصم المقترن فيه:

"يا لينا: أنا أؤمن بقول يقول إن الإنسان لا يموت دفعة واحدة، كلما مات له قريب أو صديق أو واحد من معارفه... فإن الجزء الذي كان يحتله هذا الصديق أو القريب... يموت في نفس هذا الإنسان!.. ومع الأيام وتتابع سلسلة الموت... تكثر الأجزاء التي تموت داخلنا... تكبر المساحة التي يحتلها الموت...

وأنا يا لينا ... أحمل مقبرة كبيرة داخلي، تفتح هذه القبور أبوابها ليلاً... ينظر إلي نزلاؤها... يحادثونني ويعاتبونني"(56)

ويتضح الشرخ في نفسية السجين الذي يقسمه إلى وجودين متلاصقين أحدهما آني حاضر والآخر ماض ممتد إلى الحاضر، يحكم قبضته على تلافيف الذاكرة والعقل والقلب، ويزرع نفسه.

نهاية، يقدّم السجين رؤيته من الداخل للقارئ في الخارج، فينتقل معه خيالياً وشعورياً من خلال النسق الأدبي الفني الذي قدمه محملاً بإيديولوجيات فكرية معينة يعمد على إيصالها بهدف التأثير في المجتمع ككل والوصول إلى رؤية جماعية استشرافية لواقع أفضل، يتضمن ذلك نقل الأديب أدق التفاصيل في الزنزانة، فيعمد إلى وصف الأمكنة وصفاً دقيقاً، وينطق الساكت أحياناً، ويحمله تارة أخرى مشاعر أراد بثّها، أو فكرة أراد إيصالها، ويصف الشخوص بشكل يغطي أبعاد زاوية الرؤية الخيالية عند المتلقي التي يركّب فيها أجزاء الشخصية المتكونة من الجسماني والنفسي والفكري وغيرها، فيحلق مع الرواية إلى وسط السجن الصحراوي، يعيش مع السجناء، يشعر بمعاناتهم، يتخيل أشكالهم ويتفاعل مع مواقفهم، ولذلك كان التركيز على التفاصيل في الروايات التدمرية ليس فقط من باب الواقعية أو التأثير على القارئ بل هو خلاصة وعي ممزوج بامتلاء شعوري رَسَمَا معاً التشكيل الجمالي للرواية.

المصادر، والمراجع:

1- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 2013، ص108.
2- ياسين الحاج صالح، بالخلاص يا شباب، دار الساقي، بيروت لبنان، ط1، 2012، ص24.
3- سمر روحي الفيصل، السجن السياسي في الرواية العربية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا،ط1، 1983، ص129
4- ياسين الحاج صالح، بالخلاص يا شباب، ص22.
5- مصطفى خليفة، القوقعة، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص16.
6- مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص26.
7- أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص242.
8- رياض معسعس، حمام زنوبيا، دار الجنوب للطباعة والنشر، تونس، 2012، ص312.
9- مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، ص97.
10-مصطفى خليفة، القوقعة، ص56
11-المصدر السابق نفسه، ص62.
12-أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص106.
13-مصطفى خليفة، القوقعة، ص81.
14-أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص116.
15-ياسين الحاج صالح، بالخلاص يا شباب، ص23.
16-رياض معسعس، حمام زنوبيا، ص309.
17-مصطفى خليفة، القوقعة، 103.
18-حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص56.
19-رياض معسعس، حمام زنوبيا، ص326.
20-علي أبو الدهن، عائد من جهنم، جمعية المعتقلين اللبنانيين في السجون السورية، بيروت، لبنان، ط2، 2012، ص112.
21-انظر: مصطفى خليفة، القوقعة، ص109، 110، 111، فواز حداد، السوريون الأعداء، ص322، 323، 324.
22-براء السرّاج، من تدمر إلى هارفورد، مذكرات الكترونية،2011، ص22.
23-مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، ص134.
24- عبد الرزاق الجبلي وآخرون، علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1999، ص344.
25-فواز حداد، السوريون الأعداء، ص167.
26-مصطفى خليفة، القوقعة، ص51.

27-عبد المحسن طه، الروائي والأرض، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1971، ص28.
28-مصطفى خليفة، القوقعة، ص42.
29-المصدر السابق نفسه، ص19-20-21-22.
30-مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، ص155.
31-براء السرّاج، من تدمر إلى هارفورد، ص20.
32-مصطفى خليفة، القوقعة، ص22.
33-أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص121.
34-حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص56.
35-انظر: مصطفى خليفة، القوقعة، ص54-55.
36-انظر: أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص329-330-331-332-333.
37-انظر: مصطفى خليفة، القوقعة، ص53-54
38-أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص205.
39-فواز حداد، السوريون الأعداء، ص168-169.
40-المصدر السابق نفسه، ص195-196.
41-علي أبو الدهن، عائد من جهنم، ص94.
42-المصدر السابق نفسه، ص123.
43-المصدر السابق نفسه، ص88.
44-مصطفى خليفة، القوقعة، ص92.
45-انظر: حسن بن محمد الطحان: ورحلة في سجون الطاغية، (ص70، ص83)، براء السرّاج: من تدمر إلى هارفورد(ص 54-55).
46-أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص266-267-268.
47-مصطفى خليفة، القوقعة، ص28.
48-انظر: أيمن العتوم، يسمعون حسيسها، ص299-300
49-المصدر السابق نفسه، ص134.
50-المصدر السابق نفسه، ص196-197، وما بين قوسين منقول بتصرّف.
51-المصدر السابق نفسه، ص308.
52-قد يكون هناك بعض البلديات الجيدين ولكن نسبتهم قليلة، والتصرفات الحسنة التي يفعلونها تكون بشكل سري، كما هو حال الزعيم في رواية يسمعون حسيسها.
53-مصطفى خليفة، القوقعة، ص155.
54-محمد سليم حمّاد، تدمر شاهد ومشهود، المركز السوري للدراسات، ص2.
55-انظر: مصطفى خليفة، رواية القوقعة، ص160، انتحار نسيم.
56-المصدر السابق نفسه، ص161.